آثار العمارة في أجداث سقارة

تأليف
حسن شوقي

تقديم ومراجعة
د. فاروق عبد المحسن

الكتاب: آثار العمارة في أجداث سقارة

الكاتب: حسن شوقي

تقديم ومراجعة: د. فاروق عبد المحسن

الطبعة: ٢٠٢١

الطبعة الأولى: ١٩٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

شوقي، حسن
آثار العمارة في أجداث سقارة / حسن شوقي
تقديم ومراجعة/ د. فاروق عبد المحسن
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
٩٣ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولي: ٠ – ٠٨٤ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ٢٢٧٦٢ / ٢٠٢٠

آثار العمارة في أجداث سقارة

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة الناشر

يُعد هذا الكتاب وثيقة اجتماعية وتاريخية هامة، وذلك لعدة أسباب منها أن تاريخ نشر الكتاب لأول مرة يرجع لمائة عام إذ صدرت طبعته الأولى في القاهرة في عام ١٩٢٠، ومنها أنه يحتوي فضلا عن المعلومات التاريخية والأثرية على معلومات اجتماعية هامة وقيمة، فهو يرسم في صفحاته الأولى صورة للمجتمع المصري في بداية القرن العشرين، فمثلا هو يفصل في التمهيد طرق الوصول إلى آثار سقارة وتكلفتها والوقت الذي تستغرقه ووسائل قطع هذه المسافة، هذه المعلومات تضعنا مباشرة في مقارنة بين الوضع الحالي، وما كنا عليه قبل قرن من الزمان.

فنعلم مثلا أن الجمل والحمار كانا من أهم وسائل الانتقال في المناطق الأثرية، وفي غيرها أيضا، ويقال لصاحب تلك (الركوبة) مكاري، وللمكارية شيخ أو كبير (يشبه الآن النقيب في نقابة ما) يأتمرون بأمره، وينصح الكاتب باللجوء إليه لشكوى المكاري إن طلب البقشيش وغالى فيه (يسمي الكاتب البقشيش باسم الرضيخة، أي المبلغ الذي تدفعه عن غير رضا وأنت راضخ) وكان يتم تسجيل المكاريين لدى نظارة الداخلية ولدى شيخ المكاريين، ولكل منهم رقم معين، ينصح الكتاب بمعرفته (كان المكاري يرتدي طربوشا كطربوش الخفير وموضح عليه الرقم)، والمكاريين في المناطق الأثرية كانوا يتجمعون بالقرب من محطة القطار

أما مكتب شيخهم فمقره المحطة نفسها، كل هذه المعلومات مبثوثة في ثنايا الكتاب ويرسم من خلالها صورة صادقة للمجتمع المصري في مطلع القرن العشرين.

ويحدد الكتاب كذلك الإجراءات المتبعة إن كانت الرحلة مدرسية يقوم بها الطلاب، فلا بد من استصدار إذن بالزيارة بناء على خطاب من ناظر المدرسة يحدد فيه الوقت بدقة وأسماء وأعداد الطلاب الزائرين وأن يخصص لكل اثني عشر طالبا مدرسا تكون مهمته الإشراف على هؤلاء الطلاب.

لذلك يعتبر هذا الكتاب وثيقة اجتماعية فضلا عن قيمته التاريخية، أما مؤلفه فهو الأستاذ "حسن شوقي" ويعرفه الغلاف بأنه ناظر مدرسة، وكان مدرسا للجغرافيا والتاريخ، وكانت له مؤلفات فيهما أصدرها في الربع الأول من القرن العشرين ومنها غير هذا الكتاب: "العجالة الوجيزة في أهرام الجيزة"، و"الرسالة العجيبة في آثار طيبة" وهما مثل الكتاب الذي نقدمه الي وعنوانه " آثار العمارة في أجداث سقارة" ، كتاب طريف ونادر، ويعتبر دليلا سياحيا موجزا، يقول عنه الكاتب "أن الغرض من هذا الكتيب الصغير هو تذليل صعاب السياحة"، لكن ليست كل كتبه كذلك، إذ أصدر أسفارا ضخمة مثل "مجمل تاريخ العالم" ويقع في ستمائة صفحة، وله مؤلفات في الجغرافيا منها "الدروس الأولية في الجغرافية الطبيعية" ويقع أيضا في ستمائة صفحة.

جبانة سقارة

أما كتابه "آثار العمارة في أجداث سقارة" فيتعامل مع منطقة سقارة

باعتبارها جبانة أو مقبرة ضخمة، ويبدو ذلك في العنوان حين يستخدم كلمة "أجداث" وهي جمع جدث وهو القبر. وقد اتخذت سقارة اسمها من هذه الصفة، فالاسم مشتق من اسم الإله الفرعوني سوكر وهو إله الجبّانة.

وتمتد "سقارة" من منطقة أهرامات الجيزة، التي تضم آخر عجائب الدنيا السبع القديمة، حتى مدينة "دهشور"، وكانت تستخدم كمنطقة دفن لأهالي مدينة "مَنف" على مر العصور، وهي مدرجة ضمن قائمة اليونسكو للتراث العالمي منذ عام ١٩٧٩.

وتُعدّ منطقة سقارة من أهمّ المناطق الأثريّة الموجودة في مصر، إذ إنّها تقع في الجهة المقابلة لدولة منف القديمة، وتُعتبر هذه المنطقة بمثابة جبّانة قديمة في مصر، واقعة على ضفّة نهر النيل الغربيّة، وتضم مقابر من مختلف عصور الحضارة المصرية، وبها أول مبنى حجري في تاريخ البشرية، وهو هرم زوسر المدرج، وقد بناه أمحتب من الحجر الجيري، وقبل بنائه كانت المقابر تبنى من الطوب اللبن.

وتتميز المقابر في منطقة سقارة الأثرية بالنقوش الرائعة التي ما زالت محتفظة بألوانها، وتم تصنيفها موقع تراث عالمي من قبل منظمة يونيسكو عام ١٩٧٩ وتقسم المنطقة إلى عدة قطاعات، وهي القطاع الشمالي، ويضم مجموعة من المقابر أهمها مقبرة «كا عبر» (شيخ البلد) ومقبرة «حسي رع»، والسراديب المنقورة في باطن الأرض التي كانت مخصصة لدفن طائر أبو منجل بعد تحنيطه، ومصاطب بعض ملوك

الأسرتين الأولى والثانية، والقطاع الأوسط، وتوجد به المجموعة الجنائزية للملك «زوسر»، وهرم الملك «أوسركاف» أول ملوك الأسرة الخامسة، بالإضافة إلى أهرامات متنوعة ومميزة كثيرة، إذ يوجد أيضا بمنطقة سقارة ستة عشر هرما ملكيا، منها هرم الملك «تتى» أول ملوك الأسرة السادسة، وهرم زوجتيه الملكة «إبوت» والملكة «خوبت»، وبه مجموعة المقابر الشهيرة منها مقبرة «ماروركا» الذى كان وزيرا فى عهد الملك «تتى»، والتى تزخر جدرانها بالعديد من المناظر والنصوص المهمة، ومقبرة «كاجمنى» الذى كان هو الآخر وزيرا فى عهد الملك «تتى»، والتى تعتبر مقبرته بمثابة سجل للكثير من المناظر الدنيوية والدينية، ومقبرة الطبيب «عنخ ما خور» الذى كان وزيرا هو الآخر والذى تضم جدران مقبرته المنظر الشهير لختان أحد الصبية.

وفي شمالي سقارة توجد بعض مقابر ملوك عصر الأسرات المبكرة، كما يوجد فيها أقدم هرم مدرّج في العالم، المعروف باسم "هرم زوسر"، الذي شُيد في عهد الأسرة الثالثة، ويقول المتخصصون أن عبقرية المهندس أمحتب والتي تجلت في المجموعة الهرمية للملك زوسر، أدت إلى تقديسه في العصور المتأخرة، ومنحته مكانة القديسين على الرّغم من أنّه كان من الطبقة العادية. ومنها أيضا هرم الملك أوناس الذي يتميز بأنه أول هرم سجلت على جدرانه الداخلية نصوص الأهرامات، ولا تزال أطلال معبده الجنازى قائمة، وكذلك الحفر التي كانت مخصصة لسفن الملك، ثم الطريق الصاعد الذي لا يزال يحتفظ بجزء من سقفه ثم

أطلال معبد الوادي. ويطلق البعض على منطقة آثار سقارة تسمية "أقصر الشمال"، فهي منجم للآثار وأرض بكر لم تكشف بعد كل أسرارها، وكانت منطقة مقدسة في كل العصور المصرية، وتم استخدام مقابرها في مختلف العصور.

السرابيوم

أما معبد السرابيوم، الموجود في صحراء سقارة ،فيعد لغزا محيرا للعلماء والمتخصصين في علوم المصريات، سواء بسبب وجود توابيته بهذه الأعداد الكبيرة وقد تم اكتشاف مائة تابوت منها مؤخرا فضلا عن العشرات المكتشفة سابقا، وأيضا بسبب صنعها من الجرانيت شديد الصلابة، وبهذا الحجم الضخم، واللغز في مجموعة التوابيت ليس في عددها أو ضخامتها فقط، وإنما في سبب صنعها أيضا، إذ وجدت كلها خالية ومغلقة عدا تابوت واحد فقط، ما ينفي ادعاءات عالم الآثار ماريت مكتشف المقبرة، أنها توابيت لدفن جسد العجل أبيس، إذ لم يُعثر في أي تابوت منها على أي مومياء أو جثة لجسد العجل أبيس، فضلا عن سراديبه وأنفاقه الطويلة التي تتجاوز الأربعمائة متر، والهندسة الفريدة المستخدمة الموجودة في القرن الثالث قبل الميلاد، التي تعد إعجازا علميا وهندسيا عظيما.

والسيرابيوم وهو اسم يعني (مقر أو ضريح الإله سيرابيس)، يطلق على كل معبد أو هيكل ديني مخصص لعبادة إله الوحدانية سيرابيس، وقد كانت عبادة مقدسة في مصر في العصر الهيلينستي أو "اليوناني"،

تجمع بين اثنين من آلهة مصر القديمة وهما أوزوريس وأبيس، والهدف منها جعل المواطنين ذوي الأصول الإغريقية والآخرين من ذوي أصول مصرية يشتركون في عبادة الإله الحامي الذي يجمع بين صفات الإلهين الإغريقيين "زيوس وهاديس" مع صفات الإلهين المصريين "أوزوريس وأبيس". وسرابيس كلمة مركبة تجمع بين الإلهين "أوزير" و"حب"، واكتشفه عالم المصريات أوجست ماريت عام ١٨٤٨.

ويتكون السرابيوم من مجموعة من الأنفاق والسراديب محفورة في قلب صخر هضبة سقارة، ويبدأ بممر طويل يؤدي إلى سلالم عبارة عن مصاطب كبيرة، في آخرها باب صغير، يفتح على ممر رئيسي على استقامة واحدة طوله ١٣٦ مترا، أرضيته خشبية، وأخرى زجاجية، لرؤية الأرض الأصلية للممرات، وعلى جانبيه ٢٤ غرفة دفن ذات قباب منحوتة في الصخر، لا تواجه هذه الغرف بعضها بعضا، بل حفرت بالتبادل حتى لا تحدث ضغطا على التربة الطينية التي حفرت عليها، وجداريات المقبرة تزينها النقوش المصرية القديمة، وتحتوي كل غرفة دفن على تابوت ضخم من الجرانيت ذي الألوان المختلفة، تظهر عليها نقوش مصرية قديمة متعددة.

وأنفاق السرابيوم لها باب واحد يُعتبر هو المدخل والمخرج، على استقامة واحدة، والرؤية داخل الأنفاق حتى مع وجود الشمس معتمة للغاية، ولا يُوجد أي أثر لمواضع المشاعل على جدران النفق، كما أن الأنفاق ليست محفورة في الرمال لكنها محفورة في صخور سقارة، ما

يتطلب مجهودا مضاعفا لا يُصدق أنه نفذ باستخدام اليد البشرية وحدها، وهكذا يبقى معبد سرابيوم سقارة وأنفاقه وممراته، إضافة إلى توابيته، لغزا كبيرا يحير العلماء والمتخصصين في تاريخ وحضارة مصر القديمة.

د. فاروق عبد المحسن

تمهيد

إن الغرض من وضع هذا الكتيب هو تذليل صعاب السياحة حول سقارة وجعلها شيقة لمن يرومها من الخلق الذين فطروا على حب الدعة والسكون في زيارتهم الآثار ومشاهدتهم العاديات، وهنالك مناظر شتى يمكن رؤيتها بسقارة إلا أنها تستوعب يوماً أو بعض يوم ولأن أجل هذه المناظر عبارة عن رسوم ناتئة في غرف داجية تجدها تتطلب وقتاً كثيراً وصبراً طويلاً حتى يتسنى للمرء درسها درساً دقيقاً، وجل الزائرين يضطرون إلى الذهاب إلى سقارة مع نفر كبير من رفاقهم لاسيما إذا سافروا جميعاً في سفينة تمخر في النيل أو في قطار يقلهم إلى تلك الآثار ولكن زيارتهم هذه لا تكسبهم إلا معرفة عامة عن هذه القبور وإن أجل شيء يسترعي النظر في تلك السفرة هو "السرابيوم" الذي لا يحاكيه شيء من المقابر الأخرى من حيث هول منظره وإحكام صنعته ورصانة بنيانه . أما النقوش الدقيقة البديعة الصنع التي بالمعابد الأخرى، فإنها غاية في الدقة وآية في الأبداع، ولذلك تستدعي زمناً طويلاً وسكوناً تاماً لدرسها، وإن الذين يزورون سقارة مرة واحدة في حياتهم يجدر بهم أن يروا منها بقدر استطاعتهم وأني ناصح لهم أن يؤموا هذه الآثار مرتين على الأقل إن لم يكن ثلاثا أو أربعاً إذا استطاعوا لذلك سبيلاً، ولعمري أن الرياضة في القنوات والتجوال في المفازات لمما يكسب الجسم نشاطاً عظيماً وصحة جيدة، وليس ثمة عقبة تتصدى للمسافر في سفرته

خلا حرارة الجو أو الريح العاتية، وفي تلك الحال يجعل به أن يسير الهوينى حتى لا يأخذه الكلال ويضنيه الرحيل وخليق بالزائر أن يتلو مقدمة هذا الكتاب قبل سفره إلى سقارة اللهم إلا إذا كان ذا إلمام بعادات آل تلك القبور ومعتقداتهم، فمن الصعب أن يدرك الإنسان السبب الذي من أجله شيدت هذه المقابر وازدانت.

وهذه المقدمة ستعين الزائرين على دراسة ما في القبور وأن النقوش البارزة التي يرونها هنالك ذات أهمية كبرى إذ تدل على مبلغ رقي الصناعات بالعالم المتحضر قبل عهد الإغريق، وكلما أنعمنا النظر في تلك الرسوم كلما ازدادت دهشتنا لتقادم عهدها ودقة صنعها وإحكام رسمها وجمال رونقها بيد أن هنالك تبايناً عظيماً بين تلك الصناعة وبين الصناعة في وقتنا هذا، وأن الذين لم يعتادوا رؤية هذه النقوش يجب عليهم أن يتدبروا قليلاً في فهم طريقة الرسم زمن قدماء المصريين وآرائهم في الرسم النظري، وأن دراسة صورة واحدة دراسة تامة لكافية بأن ترشدهم عن الصور الأخرى، ولابد للمرء بأن يتذكر أن مقابر الدولة القديمة هي أهم ما يرى في سقارة إلا أنه يجب على الزائرين أن يتلوا قبل سفرهم الأجزاء الأولى من الفصول المكتوبة على الآثار المتأخرة وعلى الدير المسيحي لكي يفقهوا شيئاً عن تاريخ الرسم النظري، أما وصف كل أثر آخر فيحسن قراءته في مكانه والأجدر بالإنسان أن يتصفحه تصفحاً إجماليا قبل سفره حتى يتسنى له فهم تلك الأشياء في الوقت المناسب لها. وإن الذين يزورون سقارة مرة واحدة يستطيعون بهذه الطريقة المبينة

أن يفهموا شيئاً عن بناء تلك المقابر والغرض من الرسوم الموجودة بها خصوصاً إذا قصروا زيارتهم على دراسة قبر أو اثنين دراسة تامة ولم يحاولوا رؤية أشياء أخر، وفي سفرة واحدة يجدر بالمرء أن يرى أولاً قبر (تي) الذي يستطيع رؤيته في ضوء النهار فإن هذا القبر أبدع القبور وهو أعظم مثال من أعمال الدولة القديمة ثم يزور بعده السرابيوم أو هرم أو ناس أو هما معاً ثم يختم سفرته بزيارة قبر (مبرا) وإذا صرف الإنسان يومين في زيارة هذه الآثار فإنه يستطيع رؤية أشياء كثيرة، ففي اليوم الأول يسلك سبيل البدرشين ويشاهد الأشياء التي ذكرناها آنفاً وهي: قبر (تي) والسرابيوم، وقبر (ميرا) وفي اليوم الثاني يسلك فيه طريق أهرام الجيزة فيبدأ من نزل مينا ثم يرى أباصير في طريقه ثم يواصل السير إلى سقارة حيث يرى قبر طاحونيب وهرم أوناس ثم المقابر الفارسية ثم الدير المسيحي ويمكنه أن يصرف يوماً ثالثاً في زيارة بعض المقابر الأخرى الشهيرة مثل شارع المقابر وقبر كاجمنا. ولقد ذللنا سبل السفر للمسافر بذكر الأشياء التي يتطلبها، وفضلنا ذكرها قبل ذكر الآثار ليسهل عليه الاطلاع عليها وإليك بيانها.

طلب الإذن والتذاكر

لابد للزائرين من الحصول على إذن لمشاهدة تلك الآثار فإذا كانوا من طلبة المدارس الأميرية ،فإنهم يعدون قائمة يذكرون فيها أسمائهم وتاريخ سفرتهم ويرفعونها إلى ناظر المدرسة التابعين إليه، حيث يشفعها بخطاب من لدنه إلى وزارة المعارف العمومية لاستصدار الإذن من

مصلحة الآثار المصرية وإذا كانوا يرغبون في السفر بنصف أجرة فيذكرون في طلبهم ميعاد السفر بالضبط وقيام القاطرة ذهاباً وإياباً والدرجة التي يركبون فيها وعليهم إعداد هذه القائمة وإرسالها قبل سفرهم بأسبوعين على الأقل. وإذا كان عددهم ينوف عن الخمسين يجب أن يذكروا في طلبهم إعداد مركبة خاصة لهم حتى لا يزاحمهم مزاحم، وذلك مما يزيدهم سروراً في سفرتهم ويجعلهم آمنين مطمئنين بعضهم على بعض وعليهم أن يتذكروا بأن كل اثني عشر طالباً لابد أن يرافقهم مدرس فإذا كان عدد الطلبة ستين مثلاً يجب أن يرافقهم خمسة مدرسين وإلا فلا تسمح لهم مصلحة السكة الحديدية بصرف التذاكر بنصف أجرة، وإذا كانوا من طلبة المدارس الحرة فإنهم يكتبون مباشرة إلى مصلحة الآثار ويكتبون كتاباً آخر لمصلحة السكة الحديدية لطلب الإذن بنصف أجرة عن عدد التلاميذ الذين يريدون الذهاب، أما إذا لم يكونوا من طلبة المدارس فيمكن لكل فرد أن يبتاع تذكرة بمبلغ خمسة قروش، إما من دار الآثار المصرية وإما من شركة كوك واما من دار مريث بسقارة، ويمكن أرسال أحد المكاريين لشراء هذه التذاكر من بيت مريث المذكور عند وصول الزائرين إلى أول قبر في طريقهم وهذه التذاكر تسوغ لحاملها الحق في رؤية جميع الآثار، ولكنها لا تصلح إلا ليوم واحد وهذه التذاكر اليومية لا تصلح لزيارة آثار الوجه القبلي فإذا أراد الإنسان زيارة تلك الآثار الأخيرة، فإنه يشتري تذاكر بمبلغ مائة وعشرين قرشا وتستعمل طول أيام موسم السياح في الشتاء ولا يجوز للإنسان أن يعطي الخفراء نقوداً ولكن يجمل به أن يعطيهم رضيخة نحو قرش عن كل فرد عند فتح

باب المقبرة أو عند الخروج منها أو يعطيهم ثلاثة قروش أو خمسة إذا كان الزائرون فئة كبيرة.

الأشياء التي يستصحبها المسافر

ولابد للمرء من استصحاب المائلات أو الشمع لزيادة السرابيوم وهرم أوناس والمقابر الفارسية والمقبرة التي في قبر (تي) وإني أفضل المائلات البسيطة منعاً لسقوط الشمع السائل أثناء احتراقه على يد الإنسان أو ملابسه فيضرها، وعند نزول المقبرة الفارسية يجب أن تكون حملة الشمع في مقدة الهابطين وأن تكون في مؤخرة الصاعدين عند طلوعهم حتى لا يتساقط شيء منه عليهم، أما عند زيارة السرابيوم فيحسن استصحاب مصباح المغنسيوم أو مصباح دراجة يكون ضوءه شديداً لأن هذا القبر الكبير شديد الظلام ومتسع لا يضيئه إلا سراج وهاج، ويمكن شراء الشمع من البدرشين ، ولكن يحسن بالزوار أن يستصحبوه معهم من القاهرة، وفي بيت مريث تجد عريشاً جميلاً وظلاً ظليلاً ونجد فيه موائد ومقاعد معدة لتناول الطعام بدون نفقة إلا ما يهبه المسافر من ماله على سبيل الإحسان للخدمة ولكنك لا تجد به مأكولات أو مرطبات سوى بعض الماء الذي لم يكن مقطراً وإذا استصحب الإنسان سلات كبيرة بها غذاء من الفندق أو غيره يحسن به تأجير مكان لحملها ولكن الزائرين الذين لم يثقلوا كاهلهم بحمل المؤن والأقوات الكثيرة يفضلون استصحاب قارورة أو شكوه بها ماء نقي وبعض الخبز المحشو باللحم القديد (ساندوتش) وقليل من البرتقال

الذي يسد الماء في الطريق وذلك ادعى للاقتصاد والرياضة الخلوية في الصحراء التي لا تتطلب المغالاة في الطعام والشراب.

التعريفة

إن التعريفة المبينة هنا تساعد الزائرين على تقدير المصاريف التي يحتاجون إليها إذ بمراجعتها ومراجعة الخرائط يسهل عليهم ترتيب سفرتهم طبقاً لرغائبهم

الطرق ونفقاتها

–السكة الحديدية– (من القاهرة إلى البدرشين ذهاباً وإياباً)

(١) –أ– الدرجة الأولى ٢٠ قرشاً صاغاً ذهاباً وإياباً ونصف أجرة ١٠ قروش.

–ب– الدرجة الثانية ١٠ قروش صاغ ذهاباً وإياباً ونصف أجرة ٥ قروش.

-الطريق-

(٢) الزمن الذي يستوعبه الراكب من البدرشين إلى سقارة يقرب من ساعة وربع بما فيه الوقت الذي يصرفه في الطريق لرؤية تمثال رمسيس الثاني الذي بمنفيس

–أ– أجرة الحمار ١٠ قروش ذهاباً وإياباً وقرشان رضيخة (بقشيش).

–ب– أجرة مركبة الرمل ٦٠ قرشاً ذهاباً وإياباً و٥ قروش رضيخة.

(٣) من البدرشين إلى سقارة ومنها إلى الجيزة ثم إلى الأهرام ثم فندق مينا.

–أ– أجرة الحمار ٢٠ قرشاً ذهاباً وقرشان رضيخة.

–ب– أجرة المركبة الرملية من ٨٠ إلى ١٠٠ قرش و٥ قروش رضيخة.

–ج– أجرة الجمل من ٢٥ إلى ٣٠ قرشاً و٣ قروش رضيخة.

(٤) الزمن الذي يستوعبه الراكب من فندق مينا إلى سقارة يقرب من ساعتين وربع ساعة ومن فندق مينا المذكور إلى أبي صير يقرب من ساعة وثلاثة أرباع الساعة.

ملاحظة: قد ارتفعت أجور السكة الحديدية بالنظر إلى الأحوال الحاضرة ،ولذلك ضربنا صفحاً عنها هنا. أما فندق مينا فله تعريفة خاصة به، وفي خلال فصل السياح ربما يصرف الزائرون أكثر من التعريفة المذكورة بشيء يسير إذ تجد المكاريين يتطلبون دائماً رضيخة، وقيمة الرضيخة كما بيناها هي قرشان لكل مكار من سقارة إلى البدرشين وخمسة قروش من فندق مينا إلى سقارة، وقد اعتاد المكاريون أن يطلبوا من الراكبين نقوداً لشراء علف لدوابهم في سقارة ولكن ليس لهم حق في ذلك إنما هذه طريقة عمدوا إليها في طلب الرضيخة، وأن أنجح طريقة لمنع ذلك الإلحاف هو أن يأخذ الراكب رقم المكاري ويشكوه إلى شيخ المكاريين بمحطة البدرشين.

١

القطر المصري في القديم

إن تاريخ مصر هو أقدم تاريخ في الوجود، ولكن هنالك أمما أخرى متحضرة كانت معاصرة للمصريين القدماء ومما يثبت لنا ذلك أن المصريين كانت لهم تجارة متسعة مع تلك الأمم المقامة على وادي النيل هي الآثار الوحيدة التي تشهد بإشراق شمس المدينة في ذاك العهد، ومما ساعد على تخليدها رصانة بنيانها وجفاف الجو الصحراوي التي به، وقد تنقسم ملوك المصريين الدماء إلى ثلاثين أسرة وقبل تلك الأسر لم يكن لملوك مصر سلطان على القطر كله ،بل كان الوجه البحري والقبلي حكومتين منفصلتين، ولم يكن لدينا تاريخ مدون عن العصر الذي قبل الأسر ولكن من المحتمل وجود أمة قديمة على جانب عظيم من التحضر أناخت على ضفاف النيل من عهد ٨٠٠٠ سنة، ثمانية آلاف سنة، وأن تاريخ المصريين الحقيقي يبدأ من عهد ظهور طائفة غازية على رأسها ملك يدعى مينا مؤسس الأسرة الأولى الذي وحد المملكتين المصريتين السالفتي الذكر.

الديانة والعادات والصناعات

لقد كان قدماء المصريين ورعين مستمسكين بديانتهم إذ كان للديانة تأثير عظيم في أفراد الأمة قاطبة من فرعون العظيم إلى الصعلوك الحقير، وكان يوقف ثلث الأراضي على الهياكل والمعابد كما كانت الدور تبنى من الغرين بينما المعابد تشاد بالحجر. وأن معبد الكرنك الذي

بالأقصر مثلاً من أعمال الوجه القبلي على مقربة من طيبة يعتبر أعظم معبد بني في العصور القديمة ولم تزل عمده الهائلة برتاع لها الزائرون والسياح الذين يؤمون تلك الآثار، وكان لكل قسم من مصر آلهة خاصة به ولكن بعضهم كان يعيد في جميع أنحاء المملكة ومن بين هؤلاء الآلهة (رع) رب الشمس وأوزوريس الذي مثل نعم النيل ،وكان يعبد زوجه المسماة إيزيس وابنها حورس.

ولقد اضطر المصريون أن يجروا على سنن غيرهم من الأمم الأخرى في صنع تماثيل تدل على آلهتهم التي كانت تمثل قوى الطبيعة أو توسم بسمات معنوية (مثل الشمس والقمر والخصوبة والصحة)، ولذلك أقاموا تماثيل تحاكي الإنسان بينما كانت رؤوسها تشبه الحيوان، لأنهم يعتقدون أن الآلهة كانت تسكن جسوم الحيوانات، ومن ثم نشأت تلك العادة القديمة المدهشة وهي عبادة الحيوانات فكانوا يعظمون الهررة ويمجدون الكلاب ويعبدون التماسيح، وقد زعموا أن روح أوزوريس كانت تعيش في عجل يدعى أبيس، ولذلك كانوا يعبدون أبيس هذا في معبده الجميل ولما مات أبيس قالوا بأن روحه انتقلت إلى عجل صغير ولد في ذلك الحين.

البعث والنشور والتحنيط والقبور

كان المصريون قاطبة يعتقدون اعتقاداً راسخاً بأن أرواحهم كانت تعذب أو تكافأ بعد انقراض الجسم بالنظر إلى مساوئهم أو محاسنهم التي عملوها في هذه الحياة الدنيا، فالأرواح الطيبة كانت تلوذ بأوزوريس بينما

الأرواح الخبيثة كانت تجول في أجسام الحيوانات وكلما عظمت الجرائر التي اقترفوها كلما كانت الحيوانات التي تلبسها الروح دنيئة وضيعة، وبعد ما يمضي على الروح عدة آلاف من السنين أي بعد زمن مديد تؤوب الأرواح كلها إلى جسومها البشرية وتلك العقيدة تسمى بالنشور، ولكي تعثر الروح على جسمها التالي يوم النشور حافظ المصريون على أجسامهم بوضعها في أدوية ومواد كيميائية وتسمى تلك العملية بعملية التحنيط كما تسمى الأجسام المحنطة بالمومياء (الجثث المحنطة)، وقد عثر الباحثون على عدة آلاف من تلك الجثث المحنطة ويمكننا رؤية بعض منها الآن في دار الآثار المصرية مثل جثة سيتي الأول ورمسيس الثاني. ولم تزل وجوههما محفوظة بالرغم من تقادم عهدها وطول أجلها الذي يربو على ثلاثة آلاف سنة من موت أولئك الملوك، وكان المصريون يعتقدون بأن الأرواح المتوفاة ربما تعود إلى القبور التي دفنت فيها الأجسام ولذلك بذلوا جهدهم واستفرغوا وسعهم في إقامة المقابر لراحة تلك الأرواح، فإنك ترى التلال الصخرية الواقعة غربي النيل لاسيما التي بجوار طيبة تحتوي على عدة قبور محفورة داخل الصخر الأصم كما ترى حيطانها مزدانة بالنقوش والصور التي نصف حياة الموتى وبواسطة تلك الصور درس طلاب العلوم في وقتنا هذا عادات المصريين القدماء وأخلاقهم ولقد كانت الأهرام كذلك مقابر لمنشئيها.

صناعة الزجاج والكاغد

لقد عرف المصريون صناعة الزجاج من عهد خمسة آلاف سنة، وقد فاقوا في تلك الصناعة التي تحاكي صناعة الجواهر جميع الأمم الأخرى ولم

يجارهم فيها سوى أهل أوروبا الحاليين وكانوا يتخذون طروسهم من البردي الذي ينمو على حافتي النيل وكان اليونان يسمون ذلك النبات باسمين أحدهما (بابيرس الذي اشتق منه كلمة بيبر الإنجليزية)، وثانيهما (بيبلوس الذي اشتق منه كلمة بيبل ومعناها كتاب)، وكان هذا النبات أو البردي ثميناً جداً ولذلك كانوا يستعملون طروساً أخرى من الألواح الخشبية وجلود الحيوانات وقطعاً من الخزف المهشم والزلاج.

الخط المصري

الخط المصري يحاكي الصيني ،من حيث أنه مبني على رسم الصور فإنهم كانوا يعبرون عن أسماء الأشياء برسم صورها وكان المصريون يحاكون الصينيين في الافتخار بخطوطهم التي كانت بلا شك بديعة رائعة، أما في الحفر فكانوا ينسجون على منوال هذه الصور المرسومة وهذا الخط يسمى بالخط الهيروغليفي (وأن كلمة هيروغليفي مشتقة من كلمتين يونانيتين وهما هيرو ومعناها مقدس وجلفيك ومعناها (الكتابة المحفورة) أما في الصكوك والرسائل فكانوا يستخدمون طرقاً أخرى مختصرة بدل الهيروغليفي لسهولة كتابتها.

الصناعات والعلوم

كان المصريون الأقدمون كلفين بالرسم والحفر على الحجار وبالنظر لجفاف جو هذا القطر لم تزل بعض آثارهم الصناعية خالدة لوقتنا هذا لاسيما النقوش الموجودة بالمقابر التي تلوح لنا جديدة كأنما فرغ الصناع من صنعها حديثاً، ومما يشهد بمحافظة المصريين على

تقاليدهم وعاداتهم رسومهم وصورهم، وقد بلغ فن النقش والحفر حد الكمال والإتقان في عهد بناة الأهرام ولم يرفق أكثر من ذلك في الألفي سنة التالية، أما درجتهم في العلم فكان فيها مغالاة، فإن مزاعمهم الدينية وخزعبلاتهم كانت سداً منيعاً في سبيل البحث وراء الحقائق التي نشأت منها هذه العلوم الحديثة فقد آثروا حفظ تلك المزاعم الباطلة التي ورثوها عن إسلافهم على أن يبحثوا عن معارف أخرى أجدى نفعاً من هذه، ولذلك كانت تلك العلوم مثل الطب والفلك وبعض العلوم الأخرى واقفة عند حدها ولم تتقدم في تلك العصور السحيقة إذ كانوا يعتقدون أن تشريح الجسم جريمة لا تغتفر، ولذلك لم يحصل الأطباء المصريون الأقدمون على معارف ثابتة في فن التشريح بل كانوا يعالجون المرضى باعتبار معارفهم المأثورة فإذا لم ينجح علاجهم فإنهم يستخدمون السحر لإنجاعه، أما في علم الفلك فقد ميزوا بين السيارات والنجوم وقسموا السموات إلى عدة كواكب وعرفوا بوجه التقريب طول السنة ولكن تقويمهم كان معقداً وتواريخهم تفتقر إلى الضبط ولهذا السبب صار من الصعب الوقوف على التواريخ بالضبط.

مركز النساء

كان للنساء المصريات نصيب من الحقوق في عرف القانون يعادل نصيب أزواجهن فيمكنهن وضع أيديهن على أملاكهن والتصرف فيها بأنفسهن، وهاك نبذة مما قاله أحد أمراء الأسرة الخامسة في مجموعة حكمه الأدبية حيث قال: "إذا كنت عاقلاً فاعتن ببيتك وأحبب زوجك

وأكرمها وذد عن حوضها وأوف بحقها ما دمت حياً لأنها نعمة تدر الخير على بعلها"، وهذا ينطبق على ما ورد في الحديث الشريف "اتق الله في الضعيفين المرأة والخادم"، ولم تجد في تاريخ الأمم القديمة النساء محترمات كما في عهد المصريين ولم يكن لهن نصيب كنصيب الرجال من الحقوق إلا في العصور الحديثة لدى الأمم الغربية الراقية.

٢

منف أو منفيس

لما تم توحيد المملكة المصرية للملك مينا أراد أن يتخذ له حاضرة تكون مقراً لأحكامه ومركزاً لسلطانه فاصطفى لذلك المكان الذي به ميت رهينه الآن لصلاحيته لإنشاء تلك المدينة واكتنفه بجسر يعرف بجسر القشيشة وكان النيل وقتئذ يجري في سفح جبال لوبيا أزاء التلال الرملية فردم فرعه المتجه نحو الغرب وحول النهر في مجرى متوسط بين الجبلين، ثم أحاط الأرض المحصورة في تلك المنطقة بالجسور واختط بعدئذ مدينة منف في مجرى النيل القديم بعد ما ردم الانعطاف الذي أحدثه النهر ثم احتفر حولها في الجهة البحرية بحيرة وفي الغربية بحيرة وكانتا تتغذيان من النيل الذي صار حداً للمدينة من الجهة الشرقية، فكان الجسر في الجهة القبلية يمنع طغيان النيل عليها والبحيرتان يحميانها في كلتا الجهتين البحرية والغربية من غارة الأعداء والنيل يحفظها في الجهة الشرقية من إغارة المغيرين، فلذلك كانت المدينة في مأمن من الأعداء من كل ناحية. ولم يرغب الملك مينا في بناء المدينة بهذا المكان إلا

لكونه مفتاحاً للأقاليم القبلية لأنه أضيق مكان في الوادي وأمنع بقعة حريزة لدفع العدو ورد غائلته.

وقيل بأن تأسيس هذه المدينة كان حوالي ٥٦٢٦ قبل الميلاد، كما ورد في تقويم مانيثون، وذلك التاريخ هو مبدأ تاريخ الديار لمصرية بوجه التقريب وظلت هذه المدينة زمناً طويلاً وهي مقام الحكومة وكرسي الملوك المصريين واجتمع فيها خلق كثير حتى ازداد عمرانها واتسع نطاقها وكثرت أعمالها وامتد نفوذها وتعالى مجدها وصارت قطباً تنبعث منه القرارات السنية والقوانين الفرعونية كما صارت مستودعاً للتجارة ومقراً للصناعة، ونظراً للحروب التي انتابت مصر طمعاً في فتحها وحباً في أخذها وقعت منف في يد الأعداء مراراً عديدة فأغار عليها الأشوريون مرة وفتحها الفرس أخرى، ولبثت هدفاً للمغيرين وطعمة للآكلين حتى أسست مدينة الاسكندرية عام ٣٣١ ق.م.

ولم تزل منف محافظة على درجتها ومكانتها وظلت آهلة عامرة إلى عهد أغسطس لكن تسرب الدمار إلى قصورها واعتور الفساد ربوعها التي كانت مقامة فوق الربى وعلى الآكام فأخنى عليها الدهر بكلكله ومزقها بتطاوله حتى صيرها أطلالاً دراسة وآثاراً عافية، ولقد دمرت معظم المعابد في العصر البيزنطي وقت عليها أخيراً للمماليك فآل أمرها إلى تلك الأطلال البالية والربوات العالية (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً)، وبالنظر لاتساع مبانيها وصلابة أحجارها بقيت آثارها ظاهرة إلى الآن وفيها عجائب من

بقية بدائعها ومخلفات ملوكها إذ ترى فيها خلاف التماثيل وبقايا المعابد أسواراً قائمة وحيطاناً باقية قال ماسبيرو "رأيت فيها مرة باباً شاهقاً صنع كل مصراع منه من صخرة واحدة صماء وإطاره من صخرة أيضاً وكان الإطار ملقى على الأرض أمام الباب".

وما فتئت على حالها هذا حتى لعبت بها يد الحدثان وانتابتها صروف الدهر فعفت آثارها وذهبت معالمها وأصبحت أثراً بعد عين ولم تجد بها الآن سوى قطع الأحجار المهشمة في بعض التلال وأرض المزارع والغياض ما بين مستور وظاهر منتشر في طول الأرض وعرضها وهذا مما يشهد بأن هذه المدينة هي منبع المدينة ومهد الحضارة وأنها كانت غاصة بالمباني الفاخرة والقصور الشامخة والمعابد الباذخة كما كانت كعبة الحاجين وقبلة المصلين ومحط رحال الوافدين لإجتناء ثمرات العلوم والفنون وضروب الصناعات وأنواع التجارات.

ولم تجد وصفاً لهذه المدينة أحسن مما كتبه الشيخ عبداللطيف البغدادي في رحلته وهاك نبذة منها:

"مدينة منف كان يسكنها الفراعنة وكانت مستقر ملوكهم وعناها بقوله تعالى عن موسى عليه السلام (ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها) وبقوله تعالى (وخرج منها خائفاً يترقب) لأن مسكنه عليه السلام كان بقرية الجيزة بقرب المدينة المسماة (دموه) وبها اليوم دير لليهود ومقدار خرابها الآن مسيرة نصف يوم في مثله، وقد كانت عامرة قبل زمن إبراهيم ويوسف وموسى عليهم السلام، وبعدهم إلى زمن (بختنصر) الذي أخرب ديار مصر

وبقيت على خرابها أربعين سنة وسبب إخرابه إياها أن ملكها حمى اليهود حين التجئوا إلى مصر فقصده وأخرب دياره ثم جاء الإسكندر إلى مصر ،واستولى عليها وعمر بها الإسكندرية وجعلها مقراً للملك.

ولم تزل على ذلك إلى أن جاء الإسلام ففتحت على يد عمرو بن العاص رضي الله عنه، وجعل مقر الملك بالفسطاط ثم جاء المعز من المغرب وبنى القاهرة وجعلها مقر الملك إلى اليوم، ثم إن مدينة منف مع سعتها وتقادم عهدها وتداول الملل عليها واستئصال الأمم إياها مع تعفيه آثارها ومحو رسومها ونقل حجارتها وإفساد أبنيتها وتشويه صورها مضافاً ذلك إلى ما فعلته فيها أيدي الدهر مدة أربعة آلاف سنة فصاعداً تجد فيها من العجائب ما يفوق فهم المتأمل ويحصر دونه البليغ اللسان، وكلما زدته تأملاً زادك عجباً وكلما زدته نظراً زادك طرباً ومهما استنبطت منه معنى أنبأك بما هو أغرب ومهما استأثرت منه علماً ذلك على أن وراءه ما هو أعظم، فمن ذلك البيت المسمى بالبيت الأخضر وهو حجر واحد تسعة أذرع ارتفاعاً في ثمانية طولاً في سبعة عرضاً قد حفر في وسط بيت جعل سمك حيطانه وسقفه وأرضه ذراعين والباقي فضاء البيت وجميعه ظاهراً وباطناً منقوش ومصور ومكتوب بالقلم القديم وعلى ظاهره صورة الشمس مما يلي مطلعها وصور كثير من الكواكب والأفلاك وصور الناس والحيوانات على اختلاف من النصبات والهيئات فمن بين قائم وماش وماد رجليه، وصافهما ومشمر للخدمة وحامل آلات ينبئ ظاهر الأمر أنه قصد بذلك محاكاة أمور جليلة وأعمالي شريفة وهيئات فاضلة

وإشارات إلى أسرار غامضة وأنها لم تتخذ عبثاً ،ولم يستفرغ في صنعتها الوسع لمجرد الزينة، وقد كان هذا البيت ممكناً على قواعد من حجارة الصوان العظيمة الوثيقة فحفر تحتها الجهلة والحمقى ،طمعاً في المطالب فتغير وضعه واختلف مركز ثقله وثقل بعضه على بعض فتصدع صدوعاً لطيفة .

وتجد هذه الحجارة مع الهندام المحكم والوضع المتقن قد حفر بين الحجرين منها نحو شبر في ارتفاع أصبعين وفيه صدأ النحاس وزنجرته فعلمت أن ذلك قيود الحجارة ورباطات بينها ثم يصب عليه الرصاص وقد تتبعتها الأنذال ففعلوا منها ما شاء الله تعالى وكسروا كثيراً من الحجارة ليصلوا إليها ولعمر الله لقد بذلوا الجهد في استخلاصها وأبانوا عن تمكن في اللؤم وتوغل في الحساسة ثم قال وإذا رأى اللبيب هذه الآثار عذر القوم في اعتقادهم في الأوائل بأن أعمارهم كانت طويلة وجثثهم عظيمة أو أنهم كان لهم عصا إذا ضربوا بها الحجر سعى بين أيديهم، وأما الأصنام وكثرة عددها وعظم صورها فأمر يفوق الوصف ويتجاوز التقدير، وأما إتقان أشكالها وإحكام هيئتها والمحاكاة بها الأمور الطبيعية فموضع التعجب في الحقيقة، فمن ذلك صنم ذرعناه سوى قاعدته فكان نيفا وثلاثين ذراعاً وهو حجر واحد من الصوان الأحمر وعليه من الدها الأحمر ما لم يزده تقادم الأيام إلا جده وقد حفظ فيه مع عظمة النظام الطبيعي والتناسب الحقيقي ورأيت أسدين متقابلين وصورتهما هائلة جداً قد حفظ فيهما النظام الطبيعي والتناسق الحيواني،

وقد تكسرا وردما بالتراب ووجدنا من سور المدينة قطعة مبنية بالحجارة الصغار والطوب الكبير الجافي المتطاول الشكل أهـ".

٣

معبد بتاح

كان بتاح لدى قدماء المصريين الإله الذي بيده مفاتيح السموات والأرض، وقيل بأنه كان علماً على الخالق لكل شيء ونبأنا ديودور الصقلي عن كهنة مصر أن بتاح هذا اسم لأول من ملك مصر ،وزعموا بأن بتاح هذا أول معبود عبده المصريون وعدوه رأس الأسر المقدسة في مذهب كهنتهم وقيل بأنه علم على العقل الذي لا نهاية له المدبر للعالم المسيطر على كل شيء والله تعالى أعلم، وكان لبتاح المذكور معبد رائع وهو أقدم المعابد المصرية، وكان في بداية الأمر محراباً صغيراً ثم وسعه الملك مينا وزاد خلفاؤه في رونقه وتحسينه وتنسيقه وأهدوا له الهدايا الجليلة والقرابين العظيمة جيلاً بعد جيل إلى أن دخلت الفرس مصر فتخرب ذلك المعبد وتداعت أركانه، وقد كان أمام المعبد وحوله صور وتماثيل الفراعنة التي وضعت للتقريب والابتهال، فكان أمام المعبد القبلي تمثال سيزوستريس وزوجه وأولاده وأمام الباب البحري تمثال الصيف والشتاء ،وكانوا يعظمون تمثال الصيف ويقربون له القرابين العظيمة والعطايا الجزيلة، وقيل بأن الكهنة لم تمكن دارا ملك الفرس من وضع تمثاله على باب المعبد محتجين بأنه لم يصل إلى ما وصل إليه سيزوستريس. كان أمام المعبد تمثال مطروح على ظهره طوله خمسون

ذراعاً وهو على هيئة ليث هائل ولم يعلم سبب وضع التمثال على تلك الصورة مع أن جميع التماثيل المنصوبة أمام القصور والمعابد، إما قائمة أو جالسة ولعله كان تمثال النيل وهو يسكب الماء وحوله تماثيل الأطفال الذين هم كناية عن الستة عشر ذراعاً المؤذنة بوفاء النيل.

وفي الأجيال الأخيرة حين حكم فرعون مصر أقام عمارة بجانب معبد بتاح لأبيس المقدس، وفي هذه العمارة كان العجل أبيس قائماً مستريحاً ، وكانت العمارة عبارة عن فناء فسيح يمرح فيه العجل وحيطان ذلك الفناء منقوشة وفيه بدل القواعد والعمد تماثيل جسيمة يبلغ ارتفاع كل واحد منها اثني عشر ذراعاً وكان بداخل الفناء مكانا لعلف العجل ومكان آخر لأمه وكانوا يطلقونه في أوقات معينة وسط الفناء ليراه الغرباء والوفود ،لأنهم كانوا لا يكتفون برؤيته من لنافذة فكان حين إطلاقه يطفر تارة ويمرح أخرى، وكان أمام المعبد المذكور مسرحا أو ميدان لنطاح العجول التي كانت تربى لهذا الغرض، وقد جرت العادة عندهم أن لا يسقوا العجل المذكور من ماء النيل إنما يسقونه من ركية محفورة بالوادي بمقربة من جبل لوبيا وكان عمره لا يزيد ولا ينقص عن خمسة وعشرين سنة، وقيل لأن هذا العدد هو مربع عدد خمسة ومساو لعدد حروف الهجاء المصرية.

٤

سقارة مقر البقيع

أن قرية سقارة (التي تسمى باللغة المصرية القديمة سوكاريت، ومعناها أرض سوكاريز كما كانت تسمى عادة بتاح سوكار أوزيريس) تطلق

الآن على بقيع منفيس الشهير، وهذا البقيع يشغل متسعاً من الأرض يتراوح طوله من أربعة أميال ونصف ميل إلى خمسة أميال وعرضه من نصف ميل إلى ثلثي ميل وهو عبارة عن تلك الهضبة المائجة التي هي رأس سلسلة جبال لوبيا وأن الطبقة العليا منها غشاء لطبقة طباشيرية هشيشة يتراوح سمكها ما بين عشرين وخمس وعشرين قدماً وتحتها توجد طبقة كلسية أشد صلابة منها أما الطبقة الكلسية الصلدة فلا يبلغها الإنسان إلا بعد هبوطه خمس وستين قدماً في باطن الصخر الأصم ،وهذه الطبقة الأخيرة أشد الطباق صلابة وإن طباق هذه الصخور المختلفة قد كشفت لنا النقاب عن الطريقة المتبعة في تشييد أجداث منف، ولم يكن البقيع فسيحاً فقط بل أنه يعد أقدم بقيع في الوجود إذ يدل على عصور التاريخ المصري القديم وأدواره المختلفة، وإن أقدم تلك الأجداث وا اشتمل على الآثار المقامة قبيل الأسرة الرابعة أو في بدء هذه الأسرة.

وتجد هذه الآثار منبثة شمالي الهرم المدرج وليس ثمة أثر بين تلك الآثار سوى النزر القليل يدل تاريخه على أنه أنشئ قبل الأسرة الثالثة، وإلى هذا العهد يعزي بناء الهرم المدرج الذي أنشأه زوسر ويليه جدثا خابوسناي، وهوزي حيث يدل على آثار أحدهما المحراب الحجري وعلى آثار الأخر الأربعة إطارات الخشبية الموجودة بدار العاديات المصرية، أما مقبرة شيري فيدل عليها محرابها الموجود بدار الآثار أيضاً، وقد خلد لنا هذا المحراب الأخير اسم كاهن الملك سندي (أحد ملوك الأسرة الثانية)

وبرسينو (أحد ملوك الأسرة الثالثة) أما معبد ماتن فإن محرابه قد نقله البحاثة لبسياس إلى دار العاديات في برلين، وفي كنف هذه المقابر يوجد نحواً من أربعين مصطبة من أعمال الأسرة الرابعة وسبعين من أعمال الأسرة الخامسة، وعشرين من أعمال الأسرة السادسة منبثة في سائر الهضبة، وعلى الأخص في البقعة الممتدة من الهرم المدرج بمقربة من حافة الهضبة وقد اسفر البحث الحديث عن وجود مصطبة عظيمة مصاقبه لهرم تيتي، ولا مشاحة في أن مداومة التنقيب حول هرم تكشف لنا النقاع عن مصاطب أخرى معاصرة لتلك الأهرام ففي عام ١٨٨٣ استكشف مسبيرو مقبرة من أعمال الدولة الوسطى (من الأسرة الحادية عشرة إلى الأسرة الثانية عشرة) على الهضبة قبالة قرية سقارة عن كثب من أهرام بيي، أما مقابر الدولة الحديثة (من لأسرة الثامنة عشر إلى الأسرة العشرين) فتوجد صوب الجنوب أي جنوبي الهرم المدرج، كما أن الحفر في تلك البقعة أسفر عن كشف تماثيل كثيرة مختلف أنواعها مزدانة بها الآن دار العاديات المصرية من بينها "القائمة الملكية" التي وجدت في قبر "توتارس" والتي تعرف في فن الآثار "بجدول سقارة" أما السرابيوم الذي يرجع عهده إلى الأسرة الثامنة عشر فيشغل بما فيه من الحجرات والسرب منطقة في شمال الهرم المدرج مخترقة مقابر الدولة القديمة وممتدة من الغرب إلى الشرق أي من طرف الهضبة إلى الطرف الآخر، وفي تلك المنطقة توجد معظم المقابر من بينها المقابر التي أنشئت في عهد الإغريق التي توجد شطر الشرق، وقصارى القول نرى أن أهم الآثار التي أنبنى عليها تنسيق البقيع تبدأ بالهروم المدرج وتنتهي بأعمال الدولة الحديثة.

وكما ذكرنا تسمى سقارة عادة بمدينة المقابر، ولإثبات ذلك يجدر بنا أن نوغل قليلاً في الصحراء حيث تجد تلك الأرض الجبلية التي تحيط بنا ملأي بالمعابد والأجداث يتخللها بعض الأهرام الناتئة التي ظلت تقاوم غارات الرمال وعصف الرياح أحقاباً طوالاً، وقد احتفر بعض تلك المقابر فصارت مرئية للعين بعد أن كانت محتجبة عنها إذ يمكن الإنسان تعيينها بواسطة ثغراتها العلوية التي أقيمت على عروشها لإدخال النور لها، ولكن لم يزل كثير منها مطموراً تحت الرمل في كل مكان من الصحراء، وتجد هنالك شوارع لمقابر الإنسان، ومدافن الحيوان وكان كل إنسان أو حيوان ذي منزلة عند المصريين يدفن في تلك المقابر بعد وفاته، ولأن جوف الصحراء يحفظ ما أكنه من تلك القبور تجد بسقارة مقابر للعصور المختلفة التي تعاقبت عليها وأن أبدع تلك القبور ما كان أقدمها لأن منفيس أبان نشأتها الأولى كانت عاصمة القطر المصري كما بيننا ولذلك تجد بها قبوراً لا تحصى وإطلالاً لا تستقصى، وإن الذين يذهبون إلى سقارة عن طريق البدرشين يجتازون في طريقهم الركام والحطام والأسرار البالية التي تدل على مباني تلك المدينة الجليلة، ومن العجب أن يتصور الإنسان أن الجسور التي يجتازها في طريقه إلى سقارة ربما كانت الطرق التي كانت تسير فيها جنائز الموتى أيام قدماء المصريين ويظهر لها من تلك الآثار أن المصريين صرفوا جل أوقاتهم في قامة قبورهم ومعابدهم.

ويجب علينا أن نتذكر بأن ذلك الوقت الذي صرفوه لم يكن عبثاً،

بل كان ذا فائدة كبرى لأن حيطان تلك القبور هي صحف التاريخ التي تكشف للعالم العصور القديمة والأجيال البائدة. وكان المصريون الأقدمون كمعظم الأجناس البشرية كلفين بإقامة المعابد وتزيينها بالنقوش كما ترى ذلك من الصور التي بها وكانوا يزودون موتاهم بكل ما يحتاجون إليه من مطعم ومشرب وكساء أثناء انتقالهم من هذه الدار إلى الدار الأخرى، ولذلك كانوا يضعون الموتى في أكفان فاخرة ويمدونهم بالجن والشراب والطعام الوفير ثم يبنون فوق أجداثهم بنياناً ضخماً ليبقى أبد الدهر وعلى عكس ذلك كنت ترى ربوعهم التي أقاموا فيها مدة حياتهم في غاية السذاجة إذ تجدها مبنية من اللبن أو الآجر المهشم اعتقاداً منهم بأن هذه الحياة مهما طالت قصيرة.

ولكي نتصور المقابر المصرية القديمة يجب علينا أن ندع من ذهننا تلك الكآبة والسكينة اللتين تصحبان مقابرنا الحديثة إذ يستدل من تلك المقابر أن سقارة كانت موضع الجلية والحركة في كل يوم من أيامها السالفة، فكانت بها الجنود والحراس الموكل إليها حراستها والصناع الذين يشتغلون بالبناء أو يسحبون الأحجار الكبيرة في تلك الصحراء الواسعة ويجتذبون الحبال بأناشيد وأغاني وتراتيل كما ترى ذلك في أيامنا هذه وكانت الرجال تشيع الجنائز والنساء يولولن خلفها غير ذلك كانت تولم الولائم وتقام الحفلات في أيام المواسم والأعياد، وكانت المواكب تسير إلى المعابد للعبادة وتقديم الضحايا دفعاً عن مليكهم الأكبر، وكانت الناس تسير زرافات ووحداناً في الأزقة والطرقات الموصلة إلى

الأجداث وهي تنشد الأناشيد المحزنة وتندب آباءها أ أسيادها.

وكان الغرض من هذه الشعائر المحزنة إيلام الولائم في القبور واشتراك آل الفقيد وصحبه فيها وكانوا أثناء تناولهم الغذاء ينشدون الأناشيد المحزنة ويقيمون الصلوات ويرتلون آياتهم المقدسة، وكل ما يمكننا استنباطه من ذلك هو أن فكرة الأزلية زمن قدماء المصريين كانت تنحصر في أن الروح الحيواني لا يفنى مع فناء الجسم، ولكنه يظل مصاحباً للجسم بشكل خفي وهذا الروح الكامن كان يسمى عندهم (كا) ويعبر عنه بالهيروغليفية بيدين منتصبتين، ولا حاجة للروح بأن يصاحب الجسم دائماً بل على عكس ذلك كان يغادره ويذهب لتناول الطعام والشراب لحفظ كيان الجسم، ولذلك كانت حياته متوقفة على بقاء الجسم فطالما كان الجسم محفوظاً كان الروح حياً لا يموت، ولاشك بأن العقائد الدينية في الأزمان التالية لعهد قدماء المصريين قد ارتقت كثيراً، ولكننا نجد مقابر سقارة تبحث غالباً عن العصور الأولى من تاريخ المصريين، ولابد لنا أن نتذكر بأن ضالة المصريين المنشودة في ذلك العهد هي المحافظة على الجسم وإمداد الروح دائماً بالأقوات والمؤن، ولذلك ترى أن تحنيط الجثث وصرف الأموال الطائلة عليها والاعتناء بها، ورسم المأكولات والمشروبات على حيطان المقابر وذبح الضحايا وتقريب القرابين التي كانت وفيرة في القبور البديعة وإقامة الشعائر المحزنة وترتيل الآيات الدينية التي على زعمهم تؤثر بسحر نغماتها في الرسوم التي بالحيطان فتحولها إلى أطعمة وأشربة حقيقية كل ذلك لإحياء

الروح وحفظ كيانه. وأهم ما راعوه في بناء القبور هو راحة الميت وإمداد الروح كما بينا بالطعام والشراب كي يستطيع تناوله متى شاء.

ولذلك كانوا يضعون الجثة في كفن ويدلونها في حفيرة عميقة ثم يردمون فوقها ويغطونها بالأتربة، وبعد ذلك يترحمون عليها ويتركونها وكانوا يبنون فوقها بنيانها يختلف باختلاف العصور، ففي العصور الأولى من تاريخهم كانوا يكتفون ببناء قبة على شكل رابية ،ثم صاروا يبنون بيتاً صغيراً من الحجر يحتوي على حجرة أو اثنتين حيث يأتي إليه آل الميت ليقدموا الأضاحي ويقربوا له القرابين ويسمى هذا البناء عادة بالمصطبة لمحاكاته المصاطب التي بجوار المنازل القروية الحديثة، هذا وأن بقيع سقارة يشتمل على ثلاثة صنوف من الأجداث وهي المصاطب والأهرام والقبور الأولى.

١- المصاطب: أن أقدم نوع من هذه المصاطب ما كان مبنياً على شكل بيت صغير شكل ٢، ٣ وكانت الغرف التي به عبارة عن كنوز ملأى بالذخائر والنفائس، ولكنها كانت مؤصدة، وكانت الضحايا التي يقدمها الأحياء للميت توضع خارج تلك الحجرات أي في الفجوات التي تشبه أبواب المنازل الآن، ولما صار استعمال الأحجار بدل الآجر بطل استعمال هذه الغرف، ولم يبق منها سوى الفجوة الغائرة في الحائط الشبيهة بالباب -كما ذكرنا- وصارت هذه الفجوة تلقب بالباب الوهمي (المحراب) الذي صار فيما بعد أهم أجزاء المقبرة؛ لأنهم زعموا أن (الكا) الروح يأتي من هذا الباب ليتناول من الضحايا والقرابين الموضوعة

في خارج الغرف، وكان اسم صاحب القبر يكتب في أعلى هذا الباب وربما صور له صورة وهو جالس أمام مائدة الجنازة ولم يزل بدار العاديات المصرية بعض هذه الأبواب القديمة العهد، ولكن الأبواب الوهمية التي بسقارة أرقى وأبدع منها.

النقطة الثانية في بناء المصاطب هي الدهليز والغرفة التي بداخل المصطبة وكان الباب الوهمي يبنى داخل هذه الحجرة على الحائط الغربي منها، وكان يلج هذه الغرفة من يشتغل بتقديم الضحايا كما كانت تقام بداخلها المآثم والمناحات التي ارتقت كثيراً عن ذي قبل.

أ= صومعة

ب= سرب (سرداب)

ج= حفيرة.

وكانت تزين حيطان الحجرات بالنقوش البديعة والرسوم الجميلة وكان يبني بها غرفة موصدة عليها تماثيل الميت، وكان الغرض من هذه التماثيل اتخاذ الحيطة لحفظ الروح، لأنهم كانوا يعتقدون بأن الجسم ربما يبلى، فيبقي الروح حياً بهذه التماثيل التي تقوم مقامه، وكانوا يصرفون عنايتهم في جعلها تحاكي الميت بقدر استطاعتهم ليحيا الروح وينتعش برؤيتها، وحقاً أن مجموعة هذه التماثيل التي بدار الآثار المصرية تدل على مهارة وحذق عظيم في صناعتها وتسمى هذه الغرفة المتوارية بالسرب.

وربما كُشف لنا باطن هذا السرب بواسطة ثقب في أحدى هاتين الغرفتين، وعلى ممر الأيام ترى السراة من الأمة قد أكملوا بناء المصطبة بإضافة غرفة أو اثنتين حتى إنك ترى في المصاطب المتأخرة عدة حجر ودهاليز، وفي بعض المصاطب ترى تماثيل مقامة في نفس الباب أو المحراب المذكور، كما تجد ذلك في شارع المقابر أو في قبر (ميرا) نفسه حيث تجد تمثاله قائماً على بابه كأنما يطل على خدمه، وخوله الذين يمدون له السماط ويهيئون له الطعام، وتجد على الباب عادة عدة نقوش بارزة تدل على الصلوات والآيات التي يرجون منها الترحم وطلب المغفرة للميت؛ لكي يكون مماته سعيداً وأن لا تعوزه الضحايا والقرابين وكان الرجل منهم يصرف جل حياته في إعداد قبره، وكان فخر الملك أن يهدي عبده المخلص محراباً أو كفناً، ويمكننا أن نتصور مقدار ذهاب الواحد منهم إلى سقارة مراراً، ليشاهد بنيانه ويتعهد تزيينه ونقل الأحجار الضخمة من طره ويراقب نقشها وتصويرها، وإذا نظرنا إلى القرابين نجد أنه عدا صورها المرسومة على الحيطان توجد قائمة يومية منقوشة على حائط الغرفة وعليها أسماء اللحمان وأنواعها وهي مختصرة ما يتلونه في تشييع الجنازة، ويمكن مشاهدة صور الضحايا هذه غالباً بين الصور الأخرى، وقد ترى أحد الرجال يسجد أمام مائدة الضحايا بينا تجد الآخر قائماً خلفه يتلو الآيات المقدسة المختصة بكل شيء من طعام وشراب وثياب وعطر، ومع أن إعداد الطعام كان أول شيء واجب للكا (الروح) فقد كانوا يهتمون بحاجاته الأخرى، ولذلك ترى جميع لوازمه من طعام وشراب وملاذ معدة له في كل وقت وكل فصل من السنة، فتارة تجد

الميت ممثلاً وهو ذاهب للصيد في الغدران وأخرى تجده ذاهباً ليتفقد ضياعه ومزارعه ،وحيناً تراه يطلع على النفقات والمصاريف التي يقدمها له الكتبة وطوراً تراه منصتاً لسماع الموسيقى وتجد زوجه وأولاده ملتفين حوله، وهكذا كان يشرف على أعمال رعيته وخدمه وترى في كل مكان اسم الملك وألقابه ورتبه.

ولابد لنا أن ندرك أن الملك منهم لم يعمل ذلك حباً في الفخر وتفانياً في الإعجاب إنما كان غرضه الوحيد تخليد ذكره، ومهما كان النقش بديعاً فإن أعظم شيء به هو المحراب ومائدة الضحايا.

وإن أعظم المباني التي بسقارة يرجع تاريخها إلى الأسرة الخامسة، كما ترى ذلك في قرتي وطاحوتيب، أما قبور الأسرة السادسة فتشتمل على المباني التي حول هرم تيتي ولو أنها لم تكن بديعة النقش ولكن المناظر التي بها سارة للغاية، وكل هذه القبور خاصة بالنبلاء من الأمة.

٢– الأهرام: ويجدر بنا الآن أن نرجع البصر كرة في الأهرام التي هي مقابر الملوك والأمراء، وأن الطريقة التي شيدت عليها هذه الأهرام هي عين الطريقة التي بنيت عليها المصاطب، إلا أنك تجد باطن الهرم كله مقبرة للميت، وكانت الجثة توضع في حجرة عميقة ثم يسد الدهليز الموصل إليها بينا تجد الضحايا والقرابين تقام في معبد مشاد بجوار الهرم من الناحية الشرقية شبيه الصومعة التي بالمقابر الصغيرة.

هذا وإن الأهرام المشادة لملوك وأمراء السرة الحاكمة أغزر في هذه المنطقة منها في ناحية الجيزة فقد أحصاها مريت فألفاها تناهز

الأربعة عشر بينما لسيباس حسبها فوجدها زهاء الثمانية عشر مقسمة إلى ثلاثة أقسام وهي:

القسم الشمالي–يمتد هذا القسم في خط مستقيم تقريباً يسير بانحراف مسافة ميل، ويجوز ناحية الهضبة المنيفة على قرية أبي صير، وهذا القسم مؤلف من سبعة أهرام.

القسم الأوسط– حيال قرية سقارة وهو في الحقيقة منقسم إلى شطرين صغيرين أحدهما مكون من أربعة أهرام والآخر من ثلاثة أهرام، وفضلاً عن ذلك فإنه يحتوي على قبر ملكي شكله وسط بين المصطبة والهرم، وطول هذا القسم يبلغ ميلاً ونصف ميل.

القسم الجنوبي– يقع هذا القسم بين سقارة ودهشور، ويشتمل على ثلاثة أهرام مصاقب بعضهما لبعض ومعظم هذه الأهرام لم تؤيد معرفة ولم يعرف منها سوى ستة، وأن التنقيب الذي قام به مريت في آخر سنة من حياته ،والذي أتمه خلفاؤه من عام ١٨٨٢ إلى عام ١٨٨٤ قد أماط اللثام عن القسم الشمالي الذي يحتوي على هرم أوناس (من أعمال الأسرة الخامسة) وهرم تيتي الثالث (من الأسرة السادسة) وفي القسم الأول كشف لنا ثلاثة أهرام أخرى (من أعمال الأسرة السادسة) وهي هرم بيي الأول وهرم ميتمساف وهرم بيي الثاني، وقد استكشف حديثاً صك يثبت بأن الهرم المدرج هو من أعمال زوسر (التابع للأسرة الثالثة) وهذا الهرم رغماً عن تقادم عهده، فلم يزل باقياً بينما الأهرام الأخرى تصدعت وتداعت بيد أن حجراتها وهي أعم ما

فيها لم تزل باقية، وذلك بفضل رصانة بنيانها ودقة صنعها ومع ما انتابها من صروف الدهر، وتغلب الحدثان فإنها ما فتئت خالدة ويمكنا إدراك ثمرة هذه الأهرام الجليلة التي تختلف عن سائر الأهرام المستكشفة حتى وقتنا هذا إذ أن هذه الأهرام الخمس قد أنجلت غياهبها وفكت طلاسمها بفضل الأساطير المدونة على حيطان حجراتها وردهاتها التي تنبئنا عن اللغة والديانة في عهد الدولة القديمة.

ولم تزل عدة أهرام ناتئة بين الصحراء في جهات متفرقة من هذه القبور الفسيحة التي كانت تمتد في زمنها السالف من شمال سقارة إلى جنوبها.

ومع أن الملك مينا أول ملوك الأسرة الأولى الذي وحد المملكة المصرية قد شيد مدينة منفيس واختطها لأن تكون حاضرة ملكه وقصبة دياره فإنه لم يدفن هو أو خلفه في مقبرة هذه المدينة العظيمة بل أنه دفن في (نجادا) من أعمال الوجه القبلي.. أما معظم ملوك الأسرة الأولى والثانية، فقد دفنوا في (أبيدوس) بالصحراء غربي معبد (سيتي) الشهير الذي بنى بعد وفاتهم ليكون ذكرى لهم في تخليد مآثرهم، وقبورهم هذه ليست أهرام إنما هي مصاطب كبيرة من الطراز القديم الذي سبق شرحه، وقد زعموا بأن الملك (زوسر) أحد ملوك الأسرة الثالثة الذي شيد الهرم لمدرج هو الذي غير موضع هذه المقابر كما غير أشكال القبور الملكية.

وقد حدثنا التاريخ في عهد الإغريق بأن هذا الملك هو أول من بنى القبور بالحجر بدلاً من الآجر وكان هرمه أول هرم فريد ظهر وتجلى في

تلك البادية الفسيحة، وقيل بأنه أسس حوالي ٣٠٠٠ ق.م، ومن عهد بنائه أخذ ملوك الدولة القديمة تشيد لها الأهرام إذا سنحت لها الفرص وتوفرت لديها الأموال، وأن أبدع هذه الأهرام وأجلها أهرام الجيزة المشيدة من الحجارة الصلدة التي وإن كانت لعبت بها يد العابثين واستخدموا حجارتها لأغراض شتى فإنها لم تزل حافظة على أشكالها، أما باقي الأهرام المشادة من الأحجار البسيطة فقد تآكل وجهها وانقرض معظمها فذهبت معالمها وعفت آثارها.

وإذا اعتلينا أكمة صغيرة عالية واشرفنا منها على هذه الأهرام رأينا الهرم المدرج الذي هو أقدمها واقعاً في مركزها كالقلادة وسطه العقد ورأينا الأهرام الأخرى منثورة حوله، ومن السهل التطواف حول ذلك الهرم لأنه كائن في الطريق الموصل إلى بيت مريت حيث يمر الإنسان ببابه المتجه نحو الشمال، ولا يسمح لأحد ولوجه ورؤية باطنه لأن بعض الممار التي به مخوفة خطره ولكن كثيراً من السائحين دخلوا فيه في القرن التاسع عشر أما بابه المكسو بالقرميد فقد نقل إلى دار الآثار الألمانية ببرلين..

أما هرم (سنفرو) الذي يليه في العمر فإنه بعيد جداً ، بحيث لا يمكن رؤيته من سقارة، ولكن معظم السياح أمكنهم رؤيته في القطار قبيل محطة الواسطة، أما هرم دهشور الكبير فأنه يلي هذه الأهرام ويعزي هذا الهرم إلى سنفرو أيضاً أول ملوك الأسرة الرابعة، أما الذين بنوا أهرام الجيزة فثلاثة ملوك من ملوك هذه الأسرة المتأخرين حيث يرجع تاريخ

بنائها من عام ٢٩٠٠ إلى عام ٢٨٠٠ق.م وبعد ذلك العهد يتضح لنا أن كنوز المملكة لم تكن تحت تصرف ملوكها، ولذلك تجد أهرام الأسرة الخامسة والسادسة التي بسقارة وأبي صير أصغر من سابقيها وأقل صناعة منها، ولو أن المعابد المجاورة لها كانت بديعة جليلة وإا نظرنا إلى دهشور ثانية رأينا هرمين آخرين يرجع تاريخهما إلى الأسرة الثانية عشر التي حكمت من (٢٠٠٠ إلى ١٧٨٠ق.م) ولكنهما على وشك البلى، أما أقصاهما المبنى من الآجر فقد تحطم حتى ذهبت معالمة الهرمية بينما أقربهما لم يبق من معالمه سوى فتحة كبيرة في وسطه كفوهة البركان.

وفي الحجر الباطنية الواقعة أمام هذا الهرم قد دفنت بعض عقيلات أسرة أوسرتسن الثالث، وفي تلك الحجر وجد الحلى الدهشوري الشهير الذي يوجد الآن بغرفة الحلي يدار الآثار المصرية، وقد عثر الباحثون على أرهام أخر للأسرة الثانية عشرة في لشت وفي الفيوم، ولكن هذه الأهرام بعيدة جداً عن مقابر منفيس ولذلك ضربنا صفحاً عنها هنا.

وإن شكل الهرم الخارجي ميني على قاعدة منتظمة فإن المدخل تجده بالناحية الشمالية والمعبد تجده في الناحية الشرقية، ويحيط به جميعه فناء مرصوف على الطريقة المتبعة في بناء الأهرام.

هذا وإن أهرام الدولة القديمة قد نقبت جميعها في الأزمان الغابرة ونقلت أحجارها التي تكسوها كما هدمت أحجار الصوان والمرمر الثمينة من المعابد المجاورة لها ،واستخدمت في بناء القبور التي تلتها أو

احترقت لاستخراج الجص منها وفتحت أبوابها المغلقة وسلبت كنوزها الثمينة ونهب حليها الذي ازدان به ملوكها، وكذلك الحال في المصاطب الكبيرة والمقابر الصغيرة، ولكن لم تزل الأجيال المتعاقبة تدفن الحلي من الذهب والفضة مع الأموات من الرجال والنساء، وأيضاً مع الهررة والكلاب والعجاجيل المقدسة حيث تجد مقبرتها المسماة بالسرابيوم مما يدهش الأبصار ويسترعي الأنظار، وأن هذه المقبرة الهائلة لم تبن بالأحجار إنما هي محفورة في جوف الصخر، ولم تجد بها مناظر منقوشة على الحيطان بل تجد بها أبهاء متسعة وحجراً غائرة في الحيطان على كلا الجانبين محتوية على الأضرحة الضخمة التي كانت بها العجول المحنطة.

وكان المصريون يعبدون هذه العجاجيل مدة حياتها في معبد بتاح الذي بمنفيس كما ذكرنا إما لأنها كانت حيوانات مقدسة عندهم أو لأنها تمثل آلهتهم، وقد نبأنا استرابون عن العجل أبيس حيث قال "كانت الوفود تفد إليه من كل حدب وصوب ليروه في فنائه وهو يمرح ويطفر وكانوا يراقبون حركاته وسكناته في كل وقت لاعتقادهم بأنها تدل على التكهن والتأله، وإذا مات أدخلوه ضمن آلهتهم وسموه أوزوريس أبيس ومن ذلك اشتق كلمة سرابيوم وسبرابيس الآله الذي ظهر في عالم اليونان من اختلاط الأسماء المصرية بالأسماء اليونانية، وأن قبر العجول هذا مخالف للقبور الأخرى، وتابع لزمن متأخر ولابد لنا من ذكر عصورها وتواريخها النسبية، وقد رتبنا الآثار في كتابنا هذا باعتبار العصور التي

نشأت فيها من بدء الهرم المدرج إلى الدير المسيحي، ولكن لا يعزب على فكر القارئ أن تنسيقها هذا وأن كان حقيقياً إلا أن هنالك ريباً في ذكر تواريخ الآثار الأولى العتيقة، ولا مشاحة في أن هذه الأرض الصلبة قد مستها يد المصريين منذ ٢٠٠٠ سنة ق.م أي منذ الأسرة الثانية عشر، وأن كل التواريخ التي تلي ذلك تكاد تكون حقيقية ولكن أعظم الآثار التي بسقارة هي ما يرجع تاريخها إلى الأسرة الخامسة والسادسة فهي بلاشك أقدم بكثير من ألفي سنة ق.م، ومن الصعب تعيين الزمن الذي بين هذا العصر والعصور السالفة وكثير من طلاب التاريخ لا يعتبرون عام ٢٠٠٠ ق.م منشأ الأسرة الثانية عشرة المذكورة بل يعتقدون بأن منشأها كان قبل ذلك بخمسمائة سنة، وبذلك يعتبرون تاريخ مينا أول ملك حوالي ٤٧٠٠ ق.م، وآثار سقارة ما بين ٣٧٠٠، ٣٣٠٠ ق.م بوجه التقريب ،ولكني من هذا الوجه فضلت مراعاة التواريخ المذكورة في كتاب الأستاذ برستد الذي يعتبر تاريخ الأسرة الثانية عشرةهو التاريخ المتأخر المذكور آنفاً ويقصر المدة التي سبقتها كثيراً، وبذلك يجعل تاريخ مينا حوالي ٣٤٠٠ ق.م والأسرة الخامسة من ٢٧٥٠ إلى ٢٦٢٥.

وعلى كلا الحالات يجب على القارئ أن يعتبر أن هذه الآثار عتيقة كما يدل عليها تاريخها المذكور أما تاريخ السرابيوم والآثار الأخرى المتأخرة فلا ريب فيه.

٣– المقابر الأولى: هذه المقابر غزيرة جداً، وفي كثير من نواحي البقيع تجدها مطمورة بالرمال،وهي في الحقيقة مقابر الطبقة الدنيا من

الأهلين حيث كانت تدفن بها بلا كفن أو لبوس، وبعض من هذه الأجداث يحتوي على حجرة صغيرة ساذجة مشادة من الآجر ومطلية بطبقة من السياج وكانت توضع الجثث فيها بلا أكفان، وكان يوضع بجوارها بعض الآنية البسيطة والكؤوس المصنوعة من الكلس أو المرمر التي يكثر وجودها في أجداث منفيس.

٥

تمثالا رمسيس الثاني

إن هذين التمثالين العظيمين المصنوعين من الجلمود الأصم يرجع تاريخهما إلى عهد الدولة الطيبية القديم ومجدها الأثيل ،وتجدهما الآن منبسطين على ظهريهما ووجههما قبالة السماء بين غياض النخيل التي بميت رهينة، ولكنهما كانا مقامين عند مدخل معبد بتاح السالف الذكر الذي بمنفيس وهما يمثلان رمسيس الثاني الذي تولى من عام ١٢٩٢ إلى عام ١٢٢٥ ق.م، وهو أشهر ملوك مصر القدماء، وقد زعموا بأنه فرعون الذي سخر بني اسرائيل، وأذل رقابهم وقد صرف جل حكمه في بناء العمائر والربوع، وترك أثراً خالداً له في معظم المعابد المصرية العتيقة، وفضلاً عن ذلك فقد أصلح معبد منفيس ورفع سمكه وأوسع فناءه٥.

أما التمثال الأول فهو من الحجر الصوان الصلد وتجد رأسه متجهاً نحو الجنوب ورجليه متجهتين نحو الشمال وفوق رأسه التاج المزدوج وإحدى رجليه مرفوعة عن الأخرى، وهذا مما يدل على أنه كان يقدم

رجلاً عن الأخرى عند وقوفه وقد لعبت به صروف الدهر وغيرت معالمه وأذهبت بهجته، ومع ذلك تجده حسن الصورة رائع الطلعة وعلى فخذه الأيمن تجد صورة ابنته، وعلى جانبه الأيسر صورة زوجه وطوله من رأسه إلى قدمه يقرب من عشرة أمتار وعرضه متر ونصف متر،و قد كشفه البحاثة كافجليا سنة ١٨٢٠ ميلادية، وأراد نقله إلى دار التحف بلندره، ولثقل حجمه وعظم جرمه تركه مطروحاً على الطريق الذي بميت رهينة، ومع توالي الأيام وكر الأعوام غمر الغرين الآتي من النيل معظمه وكان يغمره الماء زمن الفيضان.

أما التمثال الثاني فهو مصنوع من حجر الكلس الصلد ولرؤيته يعرج الإنسان في معراج تجد في نهايته ردهة مستطيلة من الخشب مشرفة عليه، وقبل ما لعبت به يد البلى وانتابته صروف الدهر كان طوله ٤٢ قدماً، وهو غاية في الدقة وآية في الإبداع وله لحية مستعارة وفي منطقته مهند محلى برأسي أسود وعلى كتفه الأيمن كلمة رمسيس الثاني منقوشة وأمام الكوخ الذي به تجد قطعاً من التماثيل المهشمة بها اسم رمسيس الثاني أيضاً، ومن رقبته يتدلى عقد وعلى صدره مجن عليه رمز الملك يحمله بتاح من ناحية وسينخت من الناحية الأخرى، وبيده أضمامة من ورق البردي عليها اسمه أيضاً (آمن –مري –ارمسو) ومعناه رمسيس محبوب آمن وعلى جانبه تجد رسم ابنته وهي صغيرة الشكل بحيث أن كتفها مرتفع قليلاً عن ركبته، وأما الجانب الآخر فقد تشوه والجزء الأعلى من التمثال قد بلى بينا الجزء الأدنى لم يزل باقياً، وقد

نبأنا هيرودوث وديودور عن هذين التمثالين حيث قالا (أنهما كانا على باب معبد بتاح وأنشأهما سيزوستريس بعد نصرته على القبائل الشرقية)، وهذا التمثال متناسب الأعضاء جميل المنظر، بهي الطلعة، وتلوح على وجهه أمارات الأبهة والجلال، وسمات الحلم والوقار وهو الآن عبرة لأولي الألباب وتذكرة لأولي الأبصار .

وليس ثمة أثر في طول البلاد وعرضها يحاكي هذه التماثيل، وبمقربة منه توجد تماثيل أخرى احتفرت في أزمان متعددة بعضها تماثيل جالسة القرفصاء وإلى الجنوب من هذا التمثال المهول توجد آثار معبد بتاح الشهير،وبعض تماثيل أخرى هائلة وأشكال يستدل منها أنها كانت موضوعة في بهو المعبد أو في أحدى حجراته وقطع من تماثيل رمسيس الثاني،وزورق كبير من الصوان شبيه بالزورق الموجود في تورين الآن، وقد لفت البحاثة مسبيرو نظرنا إلى وجود تمثال يمثل معبود الفراعنة وفي الناحية الشمالية تجد بعض الآثار العافية التي لا ترى إلى في غيض ماء النيل، وأن هذا المطمئن من الأرض الذي يغمره ماء النيل زمن الفيضان ربما كان خزاناً أمام المعبد تتغذى منه ترعة تستمد ماءها من البحيرة السالفة الذكر المصاقبة لسقارة ،وعلى حافة تلك البحيرة كشف الأثري الشهير مريت بيعة صغيرة لرمسيس الثاني.

وتوجد تماثيل أخرى نقرب من هذه في دار العاديات المصرية، وأن الأثريين الذين درسوا آثار الوجه القبلي يجدون بمعبد هذا الملك المسمى بالرمسيوم بالكرنك من أعمال الأقصر تماثيل بديعة له وتلك

التماثيل الأخيرة مصنوعة من الصخور التي جلبت من أبي سمبل الواقعة بصحراء لوبيا بين أسوا ووادي حلفا، وكان هذا الملك مولعاً بصنع التماثيل وإقامة المسلات لاسيما تماثيله الهائلة التي من بينها التمثال المهول الذي أقامه بمدينة تنيس من أعمال الوجه البحري وكان ارتفاعه ٢٧ متراً، ومات هذا الملك بعد أن حكم سبعة وستين حولاً كاملاً، وجثته المحنطة توجد الآن بدار الآثار المصرية، وقد ألفت ذريته اسمه لما آنسوا منه بعد الصيت وعلو الهمة، ولذلك سموا أنفسهم باسمه بعد وفاته.

٦

الهرم المدرج المؤسس حوالي سنة ٣٠٠٠ ق.م

كانت قبور المصريين في بادئ الأمر تبنى من اللبن وتشاد على شكل هرم ناقص ولمحاكاة ذلك الهرم شكل المصاطب التي تبنى بجوار المنازل القروية أصبح كل هرم أو قبر على هذا الطراز يلقب بالمصطبة،وبعد ذلك أخذت هذه القبور ترقى شيئاً فشيئاً حتى صار يشاد فوق المصطبة مصطبة أخرى أصغر منها، وربما بني فوق الثانية ثالثة ورابعة وهكذا فنشأ من ذلك ما يسمى بالهرم المدرج لأن هذه المصاطب صارت تحاكي الدرج، وأول من شيد هرماً على هذا النسق هو زوسر المذكور آنفاً مؤسس الأسرة الثالثة وهو الذي شاد الهرم المدرج الذي بسقارة عام ٣٠٠٠ ق.م، وجعله مكوناً من ست مصاطب واحدة تلو أخرى. وهذا الهرم هو أقدم الأهرام الحجرية في العصور التاريخية، وقد

حذا حذوه بناة الأهرام من بعده إلا أنهم أكملوا أهرامهم بجعل أضلاعها مستوية، وفي تلك الأهرام كانت توضع الجثة في غرفة باطنية تحت الهرم، أما الضحايا والعطايا التي تهيأ للروح فكانت توضع في معبد مشاد بجوار الهرم من الناحية الشرقية يسكنه قوم من الكهنة يقومون بتعهده وحراسته ويقربون له القربان ويطعمون الطعام على حب ساكنه.

وإن هذا الصرح الهائل الممرد هو غطاء لحفيرة عميقة محفورة داخل الصخر وله عدة طرق مشتبكة تتصل بهذه الحفيرة أربعة منها ممتدة إلى باطن الهرم ،وقد استكشف القائد منتبولي الذي كان أول من ولجه عام ١٨٢١ حجرتين مكسوتين بالقرميد المزركش ذي اللون لأخضر النضر، وهذا القرميد الذي نقله لسبياس إلى متحف برلين بديع للغاية، كما أن إطار أحد البابين كان محلى بالنقوش الهيروغليفية وعليه اسم هوراس مكرراً عدة مرات واسم الملك زوسر وكان الناوس موضوعاً في قرار الحفيرة، ومن الغريب أن تلك الدهاليز كانت ملأى بالنواويس القديمة العهد، وهذا مما يثبت أن باطن الهرم قد انتابته ظروف كثيرة وأحوال شتى وقد أبانم. برشارد الأدوار المختلفة التي أنشئت فيها تلك النواويس ، وذلك من عهد الملك زوسر إلى الأسرة السادسة والعشرين ولهذا الهرم ميزة تميزه عن سائر الأهرام الأخرى وهي أنه مبني على قاعدة مستطيلة وليست مربعة كلأهرام الأخرى، وله ست درجات كبيرة أدناها دفينة في الرمال والغبار وهو عبارة عن عدة مصاطب بعضها فوق بعض كل واحدة أصغر من التي تحتها ومساحته تساوي ٣٩٤×٣٣٠

قدم وارتفاعه ٢٠٠ قدم وهذا الارتفاع يقدر بوجه التقريب كالآتي:

الدرجة الأولى = ٣٨ قدم.

الدرجة الثانية = ٣٦ قدم.

الدرجة الثالثة = ٣٤ قدم.

الدرجة الرابعة = ٣٢ قدم.

الدرجة الخامسة = ٣١ قدم.

الدرجة السادسة = ٢٩ قدم.

وكل درجة ترتد بمقدار ستة أقدام ونصف قدم عن التي تحتها، وهذا الهرم مبني بالحجارة الكلسية ذات الحجوم المختلفة المقطوعة من الأراضي المجاورة له أما ارتفاعه الآن فهو ١٩٧ قدماً،وهذا الهرم مخالف للأهرام الأخرى من حيث أنه لا يواجه الجهات الأصلية وهو محاط بما يسمى بالفناء المقدس الذي يبلغ طوله ١٧٥٠ قدم وعرضه ٩٥٠ قدم، وباطن الهرم عجيب للغاية فتحت القمة مباشرة تجد الحفيرة الآنفة الذكر التي يبلغ عمقها ٧٧ قدماً ومساحتها ٢٤ قدماً وعرشها مقبو وكان قديماً مكسواً بالكتل الخشبية، أما أرضها فمرصوفة بكتل صوانية وتحتها توجد حجرة بسيطة مسدود مدخلها بكتلة ضخمة من الصوان يبلغ ثقلها أربعة أطنان وبداخله عدة دهاليز متصلة بحجرات متعددة، كما ذكرنا وفي إحدى تلك الحجرات قد وجدت جمجمة بشرية وكعبا رجلين محليان بالنضار الخالص كما وجدت قطع صغيرة من الرخام

والمرمر في بعض الدهاليز وتلك الدهاليز قد نشأت من البحث والتنقيب وراء الكنوز والترميمات التي عملت به وكان المدخل الأصلي لهذا الهرم من الناحية الشمالية عند أسفل الدرجة السفلى وهو الآن مؤصد، أما الملك زوسر فلم يبن به سوى حفرة مائلة وحجرة واحدة للموتى. وإلى الشمال من هذا الهرم توجد عدة أهرام بالية من الآجر أكبرها هرم تيتا.

٧

مقابر الأسرة الخامسة

من عام ٢٧٥٠ إلى عام ٢٦٢٥ ق.م

قبر (تي)

كما بيننا في المقدمة نجد أن هذا هو بيت الفقيد وليس بجدثه فقط الذي دفن فيه، ففي هذا الربع المقام كانت أخدانه ووليجته يقدمون له العطايا ويطعمون على حبه الطعام، وكانت (الكا) الروح تغدو وتروح فيه حسب إرادتها، وعند ولوج الباب الخارجي يمر الزائر بين عمودين محفور عليهما اسمه وبعد ذلك يجد بهواً فسيحاً به عمد مشيدة وهنالك يجد مدخل الحفيرة التي وضع التابوت الذي به جثته فيها، وتجدها الآن مهجورة وكانت قديماً مطمورة بالرمال والأحجار التي سوتها بسطح الأرض حتى غشيت المقبرة وجعلتها غير مرئية للعين، وقد بقيت هذه المقبرة في الأزمان السالفة ولكن التابوت لم يزل بمكانه الأصلي، حيث تجده في غاية السذاجة خلواً من النقو والرسوم، ولا يهتم بالهبوط إلى تلك الحجرة المظلمة الوعرة المنحدر إلا نفر قليل من الناس المجدين، ونجد الرسوم والنقوش التي بالبهو الخارجي غير تامة.

وليست ذات فائدة كبرى إلا ما بها من حظيرة الدجاج حيث ترى بها الخدم ينثرون الحب للدجاج بالحائط الأيمن وخلف ذلك ترى السفن المسخرة لنقل الأزودة والعلف، وفي الركن تجد محراباً لأبن تي، وبعد ذلك ترى في الردهة محراب زوجه المسماة نيفرهوتيب وهي مرسومة على ذلك المحراب أو الباب الوهمي كما تجدها مرسومة في الحجر الداخلية مع بعلها حيث تجدها أصغر شكلاً من زوجها وتجد بهذا الممر من الجهة اليمنى غرفة صغيرة ولم تجد بها الألوان باقية على أصلها فقط بل تجد أيضاً المناظر والرسوم لاسيما التي في نهاية الحائط مما يستوقف الطرف ويستهوي الفؤاد ولو أنها ليست فائقة في الرسم بالغة حد الكمال وتجد بمنتهى الحائط مناظر منزلية تمثل الحياة في ذاك العهد، وفوق ذلك تجد صناعة الخزف وحرقه وتحتها تجد عمل الخبز والمذر (البيرة) كل ذلك كانت تعمله الفتيات، وفي طرفي هذه المناظر تجد التنور مستعراً وتجد الفتاة الموكل إليها إشعال النار تسعرها بمسعر (قضيب) من الحديد قابضة عليه بيدها اليمنى بينما باليد اليسرى تستر وجهها من وهيج النار، وفي الحيطان الأخرى تجد أناس كثيرة يحملون القربان ويطعمون الطعام كما تجد عدداً عظيماً من القدور والأطباق وفي مدخل هذه الغرفة تجد الظرف الخشبي القديم المعد لقواعد الباب كما تجد ثغرات مستديرة منحوتة في حجر الكلس لوضع الزلاج أو المغلاق الذي يغلق به الباب.

وفي الممر الأصغر الذي توجد به هذه الغرفة ترى نقوشاً محكمة

الصنع بديعة المنظر، وليس ثم شيئاً أبدع شكلاً وأحسن صنعاً من رسم الزوارق والمجاديف التي تكسو الحائط الأيمن فكل وجه صغير تراه بيناً وكل يد ظاهرة جلية، وكل جزء من الأمراس والحبال متقن الصنع.

وأن اللغة الهيروغليفية التي تصف هذه المناظر فتانة رائعة، أما المناظر التي بالحائط المقابل لهذا فيها صور المذابح والأنصاب وثيران الضحايا التي تكاد تكون حية لحسن رسمها ودقة صنعها، وفي المشهد الذي فوق الثيران المذكورة تجد تماثيل الفقيد تسحب على العجلات بينما تجد بعض الناس تجتذب الجبال وترى البعض الآخر يصب الماء تحتها حتى يجعلها تنزلق بسهولة وترى على باب الحجرة الكبيرة جماعة من النسوة يلعبن ويمرحن ويرقصن ويتداعبن ويمكنك مقارنة هذا الرسم برسم فنزج به راقصات حاذقات في قبور الأسرة السادسة. أما الحجرة الكبيرة التي تلي هذه الحجرة، فإنها أعظم مثال للصناعات المصرية القديمة،وكلما صرفنا وقتاً كبيراً بها كلما ازدادت معارفنا كثيراً، فأول ما يلفت أنظارنا إليها هو أن هذه الغرفة تكاد تكون على حالتها الأصلية إذ لم يزل بها سقفها العتيق المشيد من كتل حجرية كبيرة مقامة على عمودين منقوش عليهما اسم (تي) وألقابه وكلها مطلية بطلاء يحاكي شكل الصوان وألقاب هذا الملك عديدة، وكثير منها ألقاب شرف، منها (أنه كان كاهن معبد الشمس أوزير مينا بأبي غراب) وتجد مسلة الشمس محفورة في ذاك المعبد ومن ألقابه أيضاً أنه كان يدعى بأحذق صانع للشعر المستعار أيام الفراعنة، وترى الباب الوهمي والنصب أو منضدة

الضحايا مرسومة على الناحية الجنوبية للحائط الغربي وهنالك باب وهمي آخر في الناحية الشمالية لهذا الحائط ولم يعرف الغرض من وجوده بالضبط..

وتوجد أبواب وهمية صغيرة تدل على أنها من مميزات الأشراف وأقارب الملوك وفي الحائط الجنوبي حيال مدخل الباب تجد ثلمة موصلة إلى السرداب أو الحجرة التي بها التماثيل والغرض من هذه الثغرة هو إيصال البخور للموتى حيث تجد على جانبيها رجلاً قصيراً ماسكاً مبخرة، وتدل الكتابة المحفورة على أن هذا البخور هو الملك (تي)، وفوق الرسب المذكور تجد (تي) وزوجه يراقبان الصناعات المختلفة وبعض من هذه الصناعات التي بالمشهد الأسفل فنانة بديعة حيث تجد به صناعة الجلود بجوار السرداب والأسواق والمتاجر مما يلي ذلك وفي الصف الثاني تجد النجارين مشتغلين بجد، وترى أيضاً كيفية قطع الأخشاب وثقبها وعمل الأسرة وترى وسادة خشبية وصندوقاً تحتها.

والقسم الأول من المشهد الثالث يدل على شكل الصناع الذين يتممون تمثال (تي) وإلى الجانب الأيمن من ذلك تجد الناس يعملون القدور الحجرية إذ ترى المخراق مثقلاً بأحجار كبيرة، وفي المشهد الأعلى تجد صناعة المعادن وتجد هذا الشكل كالشكل السابق أجلى بياناً في الغرفة الثانية من مقبرة "ميرا"وتجاه الباب الوهمي تجد أشكالاً مغايرة لما سبق حيث تجد أسراباً من الطيور والأنعام الثمينة والسائمة سائرة إلى حتفها الذي قدرها عليها القدر لتكون طعمة (للكا) "روح

الفقيد" كما تجد في الصف الأعلى ضروباً متنوعة من حيوانات الفلاة البرية والطيور الجارحة مثل الوعل والأيل والغزال والماعز التي تكاد تكون حية،وفي المشهد الرابع من الجانب الأعلى تجد غزالاً ، وتجد هذا الشكل نادر الوجود في مصر بحيث لم نعثر عليه إلا مرة أو اثنتين في قبور الدولة القديمة وتجده أيضاً في بنى حسن من أعمال (الأسرة الثانية عشر) وأسفل ذلك تجد بين هذه الحيوانات منظر دار القضاء حيث تجد بها الخدم والعمال يساقون للقصاص ثم يلي ذلك صف من الكتبة وقراطيسهم موضوعة أمامهم ولكل كاتب ملف من البابيرس (البردي) ومحبرة ووعاء الأقلام الغاب وحصير يجلس عليه وبالنظر إلى طريقة الرسم المتبعة في عهد المصريين تجد كل هذه الأشياء مرسومة وهي منتصبة على جوانبها والمشهد الأدنى يمثل الدجاج والطيور الأخرى التي يملكها (تي) ومما هو جدير بالرؤية سرب الكركي الرائع وتجد أيضاً الثيران على اختلاف أنواعها وجسومها مرسومة، وبالقرب من المرحاب تجد بعضاً منها مذبوحاً لإعداده للغذاء وقبل الباب الوهمي تجد النصب الذي يضع عليه الكهنة المأكولات والقرابين وعلى الباب الوهمي المذكور (المحراب) تجد الصلوات المقامة لأزوريس وأنوبيس حمداً لهما على ما منحاه من النعم الوفيرة والخيرات الجزيلة.

وتجد أيضاً دفن الموتى بهذا الشكل،وفي أعلى الباب الوهمي تجد منظراً صغيراً وعلى كلا جانبيه تجد (تي) جالساً أمام مائدته متأهباً للغذاء، وهذه المائدة المرسومة لم تزل موضوع الإعجاب لطلاب الآثار إذ

يتساءلون كثيراً عن تلك الأشكال الطويلة الشبيهة بالمدى التي عليها وقد زعموا أن هذه المائدة كانت محلاة بالقصب المنثور عليها إلا أنه بالنظر إلى قواعد الرسم المصرية القديمة تجد هذه العيدان القصبية مرسومة وهي قائمة، ولكن هذا الدليل لم يكن قاطعاً لعدة وجوه،وهنالك زعم آخر لذلك أثبتته الرسوم الأخرى القديمة، وهي أن أرغفة الخبز الموضوعة على الخوان كانت في عهد المصريين القدماء رفيعة ومسطحة كالتي تستعمل في عصرنا هذا وكان المصريون يستعملونها كالطباق حيث يضعون عليها قطع اللحم، وهذا الزعم أقرب إلى الحقيقة من غيره، وعلى أي حال تجد هذا البيان اصطلاحياً فقط، ويجدر بنا أن ندعه في غموضه، وتجد على جانبي الخوان وفوقه المأكولات والضحايا وفيرة، وفوق صورته في الحائط القبلي تجد قائمة الأكل مكتوبة في مواضع مقسمة بخطوط وبها أنواع المأكولات والمشروبات التي يتناولها كل يوم، وكذلك تجد أنواعهاً شتى من اللحمان والدجاج والطجير وللمذر والعقار واللبن، ولا يخفى عليك المياه المعطرة لمنضدة التزيين (تواليت) المهيأة له ولم تزل ألوانها الأصلية باقية بالمنظر الذي بأعلى الحائط، وكذلك على الحائط الغربي وبالحائط الشمالي تجد المشهد الأدنى يدل على وجود الفتيات الفلاحات يحملن الضحايا، وفوق ذلك تجد مناظر بديعة للحيوانات البرية والداجنة.

وفي الناحية الغربية تجد العجاجيل والأبقار تستدر ألبانها وفوقها تجد الناس يشتغلون بصيد الأسماك وحفظها، وإلى الشرق من ذلك تجد

شكل القنص في الغدران الملأى بالبردي وتجد (تي) نفسه يصطاد بأحبولة بسيطة مكونة من القصب المعقد في تلك المستنقعات التي تغزر بها الأسماك والتماسيح ولخرتيت وفوق الباب تجد عدة مناظر للزراعة وتجد تكملتها في الحائط الشرقي، وهنا تجد الثيران تثير الأرض والسائمة تسرح في المروج لترعى الحبوب والأعشاب، وبجوار الباب تجد بعض الأبقار يعبر القنوات،وهذا منظر عادي إلا أن به شكلاً غريباً، وهو أن أرجل الأبقار والراعي ظاهرة وهي داخل الماء الشفيف وتجد صبي الراعي يحمل عجلاً صغيراً يلوح عليه بأنه ولد البقرة الوسطى، وتأمل في منظر البقرتين الآخريين الساكنتين، وفي الحائط الشرقي بجوار الركن تجد منظر الحصاد، ويجب أن يتصفح الإنسان هذه المناظر من أعلى إلى أدنى ففي أعلاها تحت الكوة (النافذة) المرسومة تجد جمع الكتان وحصد الغلال وربطها في اضمامات وحملها على ظهور العير التي تنقلها بعيداً وتجد فلوا (مهراً) بديع المنظر بجوار أمه حيث توضع الغلال بعضها فوق بعض لتطأها أقدام الثيران والحمير وتجد الفتيات يذرينها ويضعها في الجوالق وتجد الكتبة يدونون كل هذه الأعمال.

وفي الجانب الآخر من هذا الحائط تجد مناظر بديعة كعمل الزوارق الخشبية وتجد بها أيضاً أشكال الآلات المستعملة وقتئذ مثل الفؤوس والمعاول الحجرية ذوات اليدين، وفي الحقيقة تجد أن كل جزء من هذا القبر جدير بالبحث الدقيق وأعمال الفكر فيه. مع أن هذا القبر أصغر من قبر (تي) إلا أنه يحاكيه في الجمال إذ به عدة وجوه جميلة،

وتجد ضوء النهار يزيده حسناً وبهاء، يدخل الإنسان هذا القبر بواسطة دهليز ضيق (١) به صور غير تامة ولهذا السبب تجده ذا فائدة عظمى في فن الرسم إذ تجد به عملية الحفر ظاهرة في جميع أدوارها فبعض الأجزاء مرسوم بخطوط والبعض الآخر تجد الظل به متقطعاً ولم يتمم، ومما هو جدير بالالتفات عانة الحمير التي بالحائط الذي بجانب المدخل الأيمن وبعض الأشكال تام الصنع بينما البعض الآخر غير تام، وإذا عطفنا على اليمين من نهاية هذا المشي (١) نرى أنفسنا في بهوذي عمد مشيدة (٢) توجد به حجرتان أحداهما قبالة الداخل (٤) والأخرى على يساره ينزل إليها الإنسان بدرجة أما الحجرة الثانية فربما كانت أبدع الحجرتين ويجمل بنا أن نعيرها جانباً من الالتفات، وحقاً أن هذه الحجرة الصغيرة تحتوي على أبدع ما يوجد بآثار سقارة إذ تجدها تستلب فؤاد كل امرئ يقع بصره عليها بالنظر لجودة رسمها وإحكام صنعها وبهاه ألوانها وربما تجدها الآن أبدع من ذي قبل مذ كانت ألوانها غضة.

ويجدر بنا ملاحظة السقف ملاحظة دقيقة فقلما تجد بالقبور الأخرى مثالاً من هذا الشكل القديم الذي يمثل جذوع النخيل مصطفة بعضها وراء بعض، ويوجد بهذا القبر بابان وهميان وترى بالباب الثاني نقوشاً بديعة كالنقوش التي تحيط بالناوس الذي بهرم أوناس. بينما الباب الوهمي الحقيقي تجده بالناحية الأخرى والدليل على ذلك وجود منضدة الضحايا (النصب) حياله كما تجد صنوف الشكال التي بالحيطان المجاورة له متجهة نحو هذا الباب، وأن الرسم الموجود على النصب هو

العلامة الهيروغليفية المصطلح عليها الدالة على طاحوتيب (شكل ٦) وربما وجدتها في أماكن عدة حول الحيطان على شكل خابية (بلاص) منكسة على حصير من عيدان القصب وهي تدل على أبسط الضحايا وأدناها وبذلك صارت سمة دالة على القربان.

وتجد بالباب رسم العادات القومية والعقائد الدينية مثل الصلوات طلباً للرحمة بعد الموت ووفرة الخيرات للروح (كا)، وعلى كلا جانبي الباب تجد طاحوتيب جالساً أمام مائدته التي يوجد عليها ما لذ وطاب من أطايب المأكولات الوفيرة ودواعي الغذاء والطست والإبريق لغسل يديه بعد الغذاء وغير ذلك تجد أوعية للتدهين والتعطير وأصيص الرياحين وكثيراً من المذر والعقار والجزء الأعلى الذي بالفراغ الذي بين البابين يحتوي على قائمة الغذاء وهي مقسمة عادة إلى أقسام منتظمة صغيرة مكتوب عليها أسماء المأكولات والمشروبات، أما الشكل الأدنى فمرسوم به ضروب الضحايا التي تجد تكملتها في الجزء الأدنى من الحائط الشمالي بجوار المدخل حيث تجد به أيضاً مذابح الثيران، ولكنك تجد أبدع المناظر من حيث وضعها وتنسيقها تبدأ من فوق باب المدخل وتمتد في جميع أنحاء الحائط وهي تمثل حياة طاحوتيب اليومية وأعماله وملاذه وتبدأ عادة بتزيينه وقت الصباح ومآربه التي يريد قضاءها في أيامه السعيدة، وتجده فوق الباب جالساً وترى الخدم والحشم حافين من حوله فبينما أحد الخدم يسرح شعره المستعار تجد الآخر يدلك رجليه والثالث يحضر حليه والرابع يجلب له كلاب الصيد

وحماره الذي ألفع، وتجد رئيس الكتبة (الناموس) يقدم له ملفاً من البردي وتجد الموسيقى متأهبة للصدح والعزف له، ثم تعطف على اليمين وتتجه نحو الحائط الشرقي حيث تجد صورته مرسومة مرتين وتجده في أحداهما يتفقد الألعاب البديعة وضروب السرور البهيجة وفي الناحية الجنوبية تجده يباشر نتاج ضيعته وتجد صورة بديعة لأبنه يحمل فيها هدهداً بالقرب من رجليه، ومن العجيب أن يرى الإنسان هذه الصورة مكبرة في تلك الأزمان الغابرة إذ تجدها في الحقيقة رائعة فتانة، ولكنها لا تخلو من الأشكال المنتصبة التي اعتدنا رؤيتها في النقوش المصرية القديمة بينما تجد الصور الصغيرة خالية من هذه الأشكال وهي لذلك بديعة المنظر إذ تمثل الحركات الصغيرة التي قلما يجدها الإنسان في النقوش المتأخرة وتجد الأنعام في هذا القبر تحاكي المرسومة في قبر (تي) إذ ربما كانت أعظم نشاطاً وأكثر قوة منها، أما المشهد الأدنى الذي بالقرب من الباب فيه نقوش تمثل النوانية الذين يأتون بحاصلاتهم إلى البر ويجاهدون في الحصول على مرسى أمين.

وإلى اليسار من ذلك تجد إمضاء (توقيع) المصور التي هي أقدم إمضاء مصور في الوجود وجميع هذه الأشكال موقع عليها صانعها وتجد رجلاً قصيراً جالساً في زورق وهو يستقي من خابية وفوقه تجد هذه الكلمات محفورة وهي (تاح ان انخ) ومعناها أشهر الحفارين، وفوق صور البحارة تجد قنص الطيور بواسطة أحبولة كبيرة ذات شكلين أحدهما وهي مفتوحة والأخرى وهي موصدة (وتجد أشكالاً بديعة كهذه مرسومة

في قبر شيشا وسيسا اللذين بشارع المقابر من أعمال الأسرة السادسة) وبعد ما تقتنص الطيور توضع في سلات ثم تحمل، والمشهد الثالث يمثل عمل الزوارق البردية وجدل الأمراس وتنظيف الأسماك وفوق ذلك تجد مناظر بديعة للحيوانات البرية مثل ابن آوي والغزال والأسد الذي يفترس الثور ثم منظر الكروم وألعاب الفتيان وجمع البردي.

وفي الطرف الآخر منهذا الحائط تجد طاحوتيب يباشر حاصلات مزارعه الواسعة وفي المشهد الأدنى تجد الأوز والكركي وبعض طيور أخرى عديدة، وقد زعموا بأن هذا الملك كان يملك ١٢١٢٠٠ طائراً وربما كان غرضه من جمع ذلك التقوى والتزود للحياة الأزلية التي يترقبها بعد موته، ولم يكن هذا العدد لتقرير حقيقة ثابتة، وفوق ذلك تجد منظرين من الأنعام ثم عدة مناظر خلوية كالمزارع والضياع ولكن لسوء الحظ ذهبت معالمها وعفت آثارها، ثم تجد غير ذلك منظرين آخرين يمثلان الغنائم والحيوانات المقتنصة ومن بينها أسدان محملان في قفصين وفي المشهد الأعلى تجد شكلاً بديعاً للمبارزة بين ولدين لكنه عال جداً بحيث يتعذر على المرء رؤيته تماماً، أما الحائط الجنوبي الصغير فيه المناظر العادية مثل حاملي الضحايا ومذابح الثيران وكميات وافرة من الطعام، وأن الكتابة المنقوشة على تلك القبور العتيقة ليست ذات فائدة كبرى فربما يخال الإنسان أن هذه الكلمات الدالة على الأزمان البائدة نفيسة جداً ولكن لو تأمل ملياً لرأي أنها في الحقيقة عارية عن الفائدة ولم يأبه طلاب العلوم التاريخية لها إلا لأنها تمثل أدوار اللغة

الهيروغليفية القديمة وهي تنطبق كمال الانطباق على الخطوط الصورية ولأنها أيضاً شدنا عن الديانات الأولية القديمة والشعائر القومية ولكن فائدتها لبني الإنسان أقل من فائدة المناظر المحفورة في الصخور وأن الرموز المرسومة على المحراب (الباب الوهمي) كما بيننا آنفاً تدل على الصلوات على أنوبيس والترحم عليه والدعاء لأوزوريس للبقاء الأزلي هذا وأن الخطوط الرأسية التي فوق صورة طاحوتيب تدل عادة على أسمائه وألقابه ومجمل ما يعمله في كل منظر.

وفي بعض المقابر تجد نبذاً من تاريخ حياة الميت مدونة ولربما يتخللها في بعض المناظر نبذ أخرى عن أشياء أخر فمثلاً يقول الأولاد وقا لعبهم (انظروا أنكم رفستموني – أن أضلاعي تؤلمني – أني لحقت بكم) ويقول القصاب عندما يذبح العجل المضحي بعد أن يرفع يده إلى أنف القسيس "أنظر إلى هذا الدم" فيجيبه القسيس قائلاً "أنه طاهر"، وكذلك تجد جملاً قصيرة كهذه تدل على الصيد وعمل الحبال وبناء السفن وما يملكه طاحوتيب من الطيور والسائمة وأشهر صائد في عهده ووكيل منزله وأعظم قسيس للمدفن وكهنة المقبرة إلخ، ولما أن نلج الغرفة الأخرى لهذا المعبد نجد صومعة اختحوتيب الذي ربما كان والد طاحوتيب أو ابنه والله تعالى أعلم، ويمكننا أن نحكم في الحال على أن هذا الرسم لم تمسسه يد (بتا حان أنخ) الذي كان أعظم حفار في ذاك العهد ذلك لأن الحفر الذي به أقل درجة منه في الغرفة السابقة فهو وإن كان محكماً إلا أنه ساذج بسيط ويظهر لنا أنه خال من الروح المعنوية

الموجودة في غيره، وهنا تجد محراباً جميلاً وصفوفاً من الصور المتجهة نحو ذلك المحراب، ولم تجد صوراً رائعة إلا بالحائط لذي بالمدخل ولسوء الحظ تجدها قد بليت، فتجد بجوار الباب منظر المجاهدين من البحارة مكللة رؤوسهم بأغصان الزنبق (اللوتس) ويوجد غير ذلك مناظر أخرى جديرة بالرؤية إلا أن الأجدر أن يصرف الإنسان وقته في مشاهدة الغرفة الأولى.

٨

هرم أوناس

أن هذا الهرم الصغير الذي بنى في عهد الأسرة الخامسة يكسبنا مثالاً عظيماً عن كيفية بناء الأهرام وهو سهل الولوج، وجدير بالرؤية ولابد لنا في ذلك من إيقاد الماثلات يدخل الإنسان هذا القبر بواسطة ثغرة في أرض الحجرة التي بالناحية الشمالية وبالقرب منها تجد كتلاً بديعة من حجر الكلس الذي كان يكسو وجه الهرم، وهنالك تجد نفقاً طويلاً داخل الصخر هابطاً إلى أسفل الهرم وبعده تجده تجد ثلاثة أبواب متتالية من حجر الصوان كانت مغطاة بكتل كبيرة من الحجارة، وبعد ذلك تلج الغرفة الوسطى حيث تجدها شامخة ذات سقف بارز بديع محلى برسم النجوم التي تستخدم عادة في تزيين الغرف المظلمة.

وتجد الحيطان منقوشة بالخط الهيروغليفي وملونة باللون الأزرق وترى تكملة هذا النقش بالغرفة اليمنى التي هي في الحقيقة المقبرة الأصلية ولم تزل محتوية على تابوت الملك وهذه الكتابة عبارة عن آيات

دينية قديمة العهد مفعمة بأساطير الجاهلية التي تبحث عن تأله الملك ومشاكلته للآلهة الأخرى، وتجد كتابة كهذه موجودة في أهرام أخر كثيرة وتسمى عادة بالآيات الهرمية وإن جانب الغرفة الذي حول الضريح مصنوع من المرمر ومزين برسوم بديعة تمثل أوجه القصور إذ تجد به صوراً للحصر المنضدة والستائر المرفوعة والسلاسل المتدلية منها وهذه الصور في الحقيقة عبارة عن المحراب إلا أنها بديعة الصنع كبيرة القدر وبواسطتها تأتي روح الملك المسماه (كا) إلى المعبد وتغدو وتروح فيه وتجد رسماً كهذا في الباب الوهمي الذي بمعبد طاحوتيب، ثم تخرج من هذه المقبرة وتعطف على اليمين متجهاً نحو الشرق حيث تجد آثار هذا المعبد الدراسة وجزءاً بديعاً من المحراب الصواني الذي لم يزل باقياً بالناحية الغربية ملاصقاً لجدران الهرم.

ويوجد الآن بدار الآثار المصرية بعض العمد الصوانية التي كانت بهذا المعبد، وغير ذلك يوجد عتبة من الصوان وكتل أخرى باقية على أصلها وأن أطلال هذا المعبد وحيطانه وأرضه تدل على سعته وتجد بعض الحفر الكبيرة التي بالأرض تسترعي الأنظار وهي تابعة لعصر متأخر وتسمى عادة بمقابر العصر الفارسي، وعدا ذلك تجد سرباً طويلاً ذا فتحتين ممتداً تحت أرض هذا المعبد من الشمال إلى الجنوب وكان هذا أقدم قبر شيد بسقارة وقد عثروا فيه على بعض الأختام الخزفية المطبوعة على الذوارع (أوعية الخمر) التي تنبئ عن أسماء الملوك الذين عاشوا في الأسرة الأولى ومن ذلك نستدل على أن بناة الأهرام لم يكونوا أول من

أسس المقابر بسقارة بل نجد في عهد أوناس الذي عاش في الأسرة الخامسة مقابر عتيقة صارت أساساً لتلك المقابر الأخيرة.

٩

أهرام أبي صير

إن المعابد التابعة لأهرام أبي صير الثلاثة الواقعة على مسيرة ساعة من شمالي سقارة لأعظم جدة منها في هرم أوناس، ويمكن الإنسان زيارة هذه الأهرام أثناء مسيرة من فندق مينا إلى سقارة، ولكن لا يحسن بالزائر زيارة آثار غيرها في يوم واحد لئلا يأخذه الكلال وينهكه التعب، وقد احتفرت تلك المعابد في خلال المدة التي بين سنة ١٩٠٣ وسنة ١٩٠٧ بواسطة شركة ألمانية شرقية، وبذلك زادت من معارفنا في بناء الأهرام، ويوجد بتلك الأهرام ما يسر الأثريين ولذلك يجمل بالزائرين أن يدرسوا معبد ساحورا درساً دقيقاً ثم ينظروا نظرة عامة إلى المعبدين الآخرين من هرم يوزيرنيرا.

وساحورا هذا كان أحد ملوك الأسرة الخامسة (التي حكمت حوالي سنة ٢٧٥٠ ق.م) ولم يزل معبده للآن غاية في الإبداع والبهاء، ولحسن الحظ عثر الباحثون على قطع كثيرة من الحجار المنقوشة بداخله كما عثروا على عمد صوانية وعمد تحاكي النخيل وأبواب وكوى منقوشة، وبذلك أمكنا أن نعرف شيئاً عن شكله ونظامه القديم ولم يزل به الطريق الحجري الموصل إلى الصحراء، وفي نهاية هذا الطريق السفلي تجد آثاراً تدل على وجود رتاج كبير يكاد يكون نفسه معبداً آخر مشاداً على أساس

حجري متين، وكان هذا الطريق يستخدم في خلال الفيضان كرصيف لمرسى السفن، لأنهم كانوا لا يستطيعون نقل الحجارة الضخمة إلى حافة الصحراء إلا في زمن الفيضان عندما كانت الحقول مغمورة بالمياه، وهنالك كانوا ينزلون تلك الحجارة ثم يسحبونها على مزالق إلى ذلك الطريق بشق الأنفس.

أما الأحجار الكلسية فكانوا يأنون بها من المقالح التي بطره الواقعة في جبل المقطم حيال سقارة على الضفة الأخرى للنيل، بينما الأحجار الأخرى الثمينة مثل الصوان والمرمر والرخام الأسود فكانوا يأتون بها من جهات قصية مثل أسوان ووادي حماد بالقرب من قنا، ولما تم لهم بناء ذلك المعبد عرشوا ذلك الطريق المرصوف وزينوه بالرسوم والنقوش حتى صار ممراً أو دهليزاً لذلك المعبد وكانت الزوارق والسفن التي تحمل المواكب إلى داخل المعبد، وفي داخل المعبد يوجد بهو فسيح مقام عرشه على أعمدة ومحاط بممار ودهاليز ولم يزل به إفريز من الصوان وبعض من الكتل الصوانية المنقوشة وكان بذلك البهو ستة عشر عموداً، ومعظم هذه الآثار قد نقلت إلى ألمانيا وبعضها بدار التحف المصرية بالقاهرة، ولم تزل بعض العمد المهمشة والعروش منثورة في عرضته، وذلك مما يجعل الزائر يحكم على مبلغ ارتفاع تلك الأبهاء وجلالها ويظهر من حيطان ذلك البهو أنها كانت مزدانة بالرسوم والنقوش من الناحية الجنوبية، وكانت بها مناظر تدل على فتوحات الليبيين، أما في الناحية الشمالية فيوجد بها نقوش دالة على مناظر الصيد وأخرى دالة

على حملة بحيرة إلى سواحل آسيا وفي داخل المعبد تجد تجاه المحراب أشكالاً دالة على الضحايا والقرابين.

وإن كل رسم على أية قطعة من الأحجار بالغ حد الإتقان والكمال، وعلى كلا الجانبين تجد صفاً من الرف ذوات الطبقتين التي كان يحفظ بها كنوز ذلك المعبد وذخائره، وهنالك تجد تحت أرض المعبد مجموعة من المجاري المائية الكثيرة الانعطاف، وفي الناحية الشمالية الشرقية تجد سطحاً مائلاً من حجر الكلس المجعد موصلاً إلى سقف المعبد، ومن الناحية المقابلة لذلك كان يوجد مدخل آخر مزين بالرسوم، وفي الناحية الجنوبية تجد ممراً موصلاً إلى فناء هرم آخر صغير يظن أنه هرم الملكة. وبعض من النقوش المأخوذة من معبد ساحورا التي هي ذات أهمية تاريخية كبرى موجودة الآن في المتحف المصري بالقاهرة في الممشى الطويل الواقع إلى الغرب من حجرات الدولة القديمة.

أما المعبدان الآخران فيختلفان كثيراً عن غيرهما في شكلهما وأوضاعهما فإذا ارتقينا الهرم الأوسط أي هرم بوزير نيرا وأطللنا إلى أسفل لبدا لنا أن محور المعبد التابع لذلك الهرم لم يكن ممتداً في خط مستقيم من وسط ضلعه الشرقي كما هي العادة المتبعة في بناء تلك المعابد، ومع أن المحراب والمقصورة في موضع منتظم فإن البهو ذا الأعمدة والمدخل والدهليز مبنية تجاه الجنوب ومن السهل إدراك السبب لهذا الوضع، وهو أنه يوجد شرقي المقصورة عدة مصاطب وكان الواجب أن يوجد محلها البهو ذو الأعمدة وكانت تلك المصاطب

مشيدة في تلك الجهة عندما بني هذا الهرم، وهي مقابر النبلاء من الأمة وكانت في ذاك العهد حديثة بحيث لم يتيسر محوها، ولذلك اضطر الملك أن يحور شكل المعبد حتى يلاءم الحالة الموجود عليها الآن، وقد انتفع هذا الملك من آثار غيره حيث أنه استخدم "معبد الوادي" والطريق الموصل إليه الذي بناه الملك نيفراركارا في تشييد هرمه الملاصق له وإذا عدنا الآن إلى المعبد المذكور نجد أنه مقام على طريقة مدهشة وأنه في غاية السذاجة لأن مؤسسه مات قبل أن يتممه ويزينه ولما لم يستطع ابنه الإنفاق عليه أكمله بحالة بسيطة إذ تجد باطنه مبنياً بالحجر بينما حيطان بهوه وخزائنه ومساكن الكهنة مبنية بالآجر.

١٠

معبد الشمس بأبي غراب

هنالك معبد آخر من معابد الأسرة الخامسة عن كثب من أبي صير واقع تجاه الشمال في الطريق الموصل إلى فندق مينا، ويسميه العرب بأبي غراب ولم يكن هذا المعبد تابعاً لهرم ما، وليست له علاقة بشعائر الجنائز وحفلات المواسم بل أنه جزء من معبد كبير بناه الملك يوزيرنيرا لعبادة آله الشمس (رع هليوبوليس)، ويمتاز ملوك هذه الأسرة عن أسلافهم بتحوير في ألقابهن التي لابد أن كانت من بدعهم الدينية فقد يتفق أن رئيس كهنة هليوبوليس يتبوأ أحياناً عرش المملكة وعلى أي حال فقد انتشر نفوذ الكهنة في سائر أنحاء المملكة ومن ذلك العهد اعتقدوا بأن كل ملك من ملوك مصر هو ابن رع المذكور حتى صارت هذه

الكلمة علماً على الأسرة المالكة وأدمجت في اسم الملك فمثلاً تجد اللقب الملكي للملك آسا يكتب هكذا "داد كا رع بن رع. آسا" ملك مصر الشمالية والجنوبية.

ومقصورة هذا المعبد تحتوي على مسلة من الصوان قائمة على قاعدة مربعة وربما كان رأسها مغطى بمرآة تعكس ضوء الشمس وقت إشراقها وترسله إلى مسافات بعيدة، وتجد بمعبد (تي) إشارة هيروغليفية تدل على هذا المعبد وهي منقوشة على أحد العمد التي بالغرفة الداخلية، وتلك الإشارة هي من ألقاب (تي) الممنوحة له وهي أنه كان يلقب عادة "بكاهن معبد الشمس للملك يوزيرنيرا (راجع صفحة ٥٨) أما قاعدة المسلة فكانت مكسوة بالصوان وأمام المقصورة من الناحية الشرقية كان يوجد المعبد وهو عبارة عن بهو فسيح محاط بصف من العغرف ولو أن كثيراً منها قد بلى، فلم تزل بها معالم بديعة منها مذبح من المرمر المواجه للمسلة، وفي الناحية الشمالية للمعبد تجد عدة مجاري في أرضه متجهة نحو الشرق، ويقال بأن هذه المجاري كانت معدة لجريان الدم الذي يسيل من الحيوانات المذبوحة للضحايا كما كانت أحواض المرمر الواقعة في الطرف الشرقي أوعية لها، وفي الناحية الجنوبية بالقرب من المعبد تجد آثار زورق كبير مصنوع من الآجر ولم تزل معالمه بينة بالرغم من انهيار الرمال عليه وكان هذا الزورق يمثل سفينة هذا المعبود "الشمس" ولابد أن كان هذا الزورق مطلياً ومزركشاً بالنقوش إذ كان له نصيب كبير في عبادتهم.

١١

مقابر الأسرة السادسة

(من عام ٢٦٢٥ إلى عام ٢٤٧٥ ق.م)

إن مقابر ذلك العصر أكبر من غيرها وبالحري أن مساحة الغرف أكبر بكثير منها في العصور السالفة كما أن البناء بديع للغاية، وأن مقابر الأسرة السادسة المذكورة بالقرب من هرم تيتا، وكان سكان تلك المقابر من القساوسة وربما كان بذلك المكان شوارع وبنات طرق ومنعطفات متقاطعة محدقة بهذا الهرم.

معبد (ميريروكا) اوميرا

كما يتضح لنا من بناء هذا المعبد نجد أنه أكبر معبد في سقارة إذ يحتوي على عدة مناظر مختلفة كما يوجد به محراب بديع عليه تمثال (ميرا) قائم في فجوته وكان هذا الملك يلقب بهذين اللقبين وهو ميرا وميريروكا، وقد جرت العادة في تلك الأسرة أن يسمي ملوكها باسمين أحدهما كان يدعي "الاسم الحسن" والآخر "الاسم العادي" وكان الاسم الحسن لهذا الملك هو (ميرا) وتجد في مدخل هذا القبر في عرض الحائط صورة جديرة بالنظر، وقد يتعذر على الإنسان معرفة هذه الصورة من أول وهلة ،ولكن إذا تأمل ملياً وجد أنها تشتمل على مصور جالس أمام منصب التصوير وهو يرسم وذلك المنصب متحرك بمعنى أنه يسهل رفع الصورة أو خفضها.

وبالنظر إلى طريقة الرسم المتبعة في عهد قدماء المصريين تجد أن الصرة مواجهة لنا وليست مواجهة للمصور، وهذا الرسام يرسم بفرشة قابض عليها بإحدى يديه بينما باليد الأخرى تجد لوحة الطلاء وجرة الماء وبعض أدوات الرسم موضوعة بجانبه على منضدة ،ولم تكن الصورة التي أمامه توضح رسم أي شكل مقصود إنما يقصد بها تمثيل فن الرسم على وجه العموم وتجد بها ثلاثة أشكال بيضية تمثل الثلاثة فصول التي كانت تقسم السنة المصرية إلى ثلاثة أقسام، وتجد في كل منها أربعة أقمار وتلك الأشكال البيضية قائمة على ثلاثة صور ومكتوب عليها أسماء الفصول وهي فصل الفيضان والفصل الذي يليه وفصل الحصاد، وهذا مما يدل على أن المصور كان مشتغلاً طول الحول وأنه كان يمثل أوجه الطبيعة كلها، وبجانبه تجد ابنه المسمى خينو، ولكن اسمه المكتوب فوق رأسه قد محى.

وهذا الشكل كله بلاشك وسيلة أخرى لتخليد اسم المصور ولكنه نسج على منوال أكبر منه في قبر طاحوتيب وفي الغرفة الأولى (١) من هذا المعبد تجد أبدع المناظر التي تستهوي الفؤاد، ولكن النور بهذه الغرفة ضئيل إذا قارناه بالضوء الخارجي الشديد والأجدر بنا تركها الآن حتى نزور الغرف الداخلية وما أن نلج الغرفة الصغيرة غرفة (٢) نجد بجانبنا الأيمن مناظر جميلة تمثل صناعة المعادن وصكها إذ تجد الصناع أولاً يزنون الذهب ويدونون قيمته ثم يصهرونه ثم يصبونه في أوعية ثم يطرقونه، وبعد ذلك تجد منظراً أو اثنين طمست معالمها.

وبأسفل هذا الرسم تجد رجالاً قصيري القامة (أقزاماً) يضعون الجواهر في أوعية، ويتضح لنا من ذلك أن قدماء المصريين كانوا كلفين برسم هؤلاء الأقزام لأننا نرى أشكالهم متكررة في كثير من المعابد والمقابر وربما كانتتستخدم للأعمال البسيطة مثل تزيين أسيادها ومرافقتها إياهم في حلهم وترحالهم وفوق صناعة المعادن تجد التجارة وعمل التاثيل والأوعية الحجرية وفوق ذلك نجد صفاً من القوارير تمثل كل الأشكال المستعملة في ذاك العهد، وفي الحائط المقابل لهذا تجد منظراً واحداً من المناظر الجميلة التي ؟؟؟ والتي كانت تمثل القنص إذ تجد أشكال الكلاب البديعة التي تطارد الغزلان كما تجد بقرة بائسة أعدت شركاً لاقتناص الأسد.

وفي الغرفة الثالثة (٣) تجد على الجانب الأيمن بهواً رفيع العماد يمثل دار القضاء في ذاك العصر كما تجد الكتبة جالسين على مقاعدهم أمام مناضدهم يدونون القضايا وتجد الفلاحين يساقون لتأدية الشهادة وهم تحت طائلة العذاب، وتجد في نهاية ذلك شكلاً جديراً بالالتفات حيث تجد رجلاً موثوقاً في عمود أعد للجلد وعلى قمته رأسان صغيران يمثلان رأسي مذنبين ضربت عنقهما.

وبالجانب الأيمن تجد السماكين الذين يستخدمون حبائل ذات أطراف حادة يصطادون بها مقادير كبيرة من صغار الأسماك وتحت ذلك تجدهم يحتذبون شبكة طائفة على عوامات. ومن هذه الغرفة يلج الإنسان الغرفة الرابعة (رقم ٤) وتلك غرفة كبيرة ذات عمد محتوية على

عدة مناظر رائعة، ولكنها على جانب عظيم من السذاجة ويحسن بنا في أول زيارة لهذه المقابر أن نترك الغرفة الرابعة والخامسة والسادسة (٤، ٥، ٦) ونخصص جل وقتنا للغرف الأخرى. ففي الغرفة الرابعة (٤) تجد بالحائط الأيمن أريكتين مستطيلتين ومقامتين على أرجل تمثل الآساد وعليهما كساء أبيض وعلى إحداهما تحد (ميرا) جالساً مستمعاً للموسيقى التي توقعها سيدة فتانة الحسن رائعة الجمال طلقة المحيا أما الأريكة الأخرى فهي عبارة عن سرير قد وأعدوا نمارقة ونضدوا فرشه وهو مرسوم داخل إطار كالقفص يمثل الكلة، وفي الجانب الآخر من الحجرة تجد فنزجاً به الراقصون والراقصات. أما الغرفة الخامسة (٥) فلم يوجد بها شيء سوى المحراب وبعض مناظر تمثل موكب حاملي الضحايا الذين يسيرون نحو ذلك المحراب. وفي الغرفة السادسة (٦) تجد الصناعة بسيطة للغاية والمناظر غير مجدية.

ولما أن نلج الغرفة السابعة (٧) الكبيرة نجد أنفسنا قبالة أعظم شيء بالمعبد ألا وهو تمثال (ميرا) حيث تجده واقفاً على درجة من المعراج متأهباً للنزول لتناول طعام الجنازة وتجد صورته كذلك مرسومة على أوجه العمد الأربعة كما تجده بالحائط تارة وحيداً وأخرى مع بنيه وطوراً مع زوجه وحيناً مع أمه وتجد حلقة حجرية وسط الحجرة زعموا أنها أعدت لشد وثاق الثور المهيأ للضحية وبالحائط الشرقي تجد مناظر الحصاد وما بها من جني الغلال وحزمها ووضعها على ظهور العيار وأن أبدع منظر بهذه الأشكال هو قنص السمان بين حقول الغلال كما تجد

بعض الطيور مختبئة داخل السنابل، وفي نهاية هذا الحائط تجد ميرا وزوجه جالسين أمام منضدة النرد حيث تجد ميرا يلعب مع أحد رفاقه أو حاشيته وفي الركن عينه بالحائط الشمالي تجد فوق الباب بعض ألعاب الصبيان والفتيات وتلك المناظر جديرة بالالتفات لأنها بديعة للغاية، وتجد بعض هذه الألعاب جلية مثل شد الحبل الذي يلعبه الصبيان ودوران الفتيات ولكن معظم هذه الألعاب لا تشاكل الألعاب الحديثة الآن.

أما الغرفة الثامنة والتاسعة والعاشرة التي يصل إليها الإنسان من هذا الباب فهي تابعة لابنه الأكبر المسمى (تيتاميرا) والصناعة بها أقل درجة منها في الغرف السابقة ما خلا المحراب الأكبر الذي بالغرفة التاسعة حيث تجده بديعاً، ولكن لسوء الحظ تجد به دليلاً يؤيد أنه لم يبن في بادئ الأمر لتيتاميرا المذكور إنما بني لرجل غيره، ومما يثبت ذلك أن اسم الملك كان محفوراً على الجزء الأدنى من كل عمود ثم أزيل بعد ذلك وكتب بدلاً منه اسم تيتاميرا بدون تغيير لون الحجر، ويجدر بنا الآن أن نعود إلى الغرفة السابعة ونمر بالمحراب الذي بها، وبعده نرى عدة مناظر جميلة بها أشكال تدل على رعي الحيوانات وإطعامها وعلى كل شكل من ذلك اسمه ويستدل من ذلك على أن الضبع كانت من الحيوانات التي يتغذى منها قدماء المصريين وعدا ذلك تجد ميرا ماشياً بين ولديه الصغيرين أما هودجه الذي يركب فيه وتتبعه كلابه وقردته التي يألفها وقلما تجد شيئاً جديراً بالنظر بالحائطين الآخرين وإن ما بهما من

النقوش بسيط للغاية حيث تجد زوارق مختلفة الحجم وبالقرب من الباب الذي ولجناه نجد بالجانب الأيمن مناحة بها بعض النساء النائحات وهذا المنظر تجده أبدع في قبر سيسا، وأن الباب الذي بالحائط الغربي بجوار الصورة التي تمثل ميرا في هودجه يوصل إلى عدة غرف صغيرة بواسطة ممر مظلم صغير ولم يكن بها رسوم كما لا يوجد بها منافذ في عروشها ومنها نمر إلى أحدى الغرف المضاءة وهي الغرفة الثانية عشرة وأن ما بها من النقوش عبارة عن أثاث المقابر ولابد أن كانت هذه الغرف تحتوي على حاجيات المقابر، وبالغرفة الثالثة عشرة تجد محراباً عادياً بديعاً وعليه نقوش تدل على فروض الصلوات العادية التي أقيمت لأنوبيس وأوزوريس كما توجد به صورة ميرا على كلا الجانبين وهو جالس أمام مائدة الضحايا وتجد قائمة الغذاء وباقي الحيطان محلى بالصور التي تحمل الأضاحي وأسماء الأعياد والمواسم التي تقدم فيها الضحايا، أما الغرفة الرابعة عشرة فتجد بأحد حيطانها منفذ سرب ولكنك تجدها مرممة وبها مناظر قليلة والنور بها غير كاف، ومنها نخرج إلى الغرفة الثالثة ثم إلى الغرفة الأولى، حيث نجد بها الضوء كافياً لرؤية مناظرها فعلى كلا الجانبين نجد مناظر الألعاب ولو أن صورة ميرا الكبيرة قد بليت إلا أن بها بعض النقوش الجميلة مثل مناظر المياه والغدران والحيوانات التي تعيش بها ونجد النمس يستخدم ككلب الصيد كما نجد ذلك في مقابر الدولة القديمة حيث تجده زاحفاً على أشجار البردي في طلب وكر أبي نقار بينما تجد أبوي الطائر يهرعان لمقاتلته وتجد نمساً آخر هابطاً من الجانب الآخر للمستنقع وفي فمه فريسة.

وبالحائط المقابل لهذا تجد طائفة من السماك سابحة في غدير وبه معظم الأسماك التي تصاد من النيل أو من ماء الفيضان، وتجد كل هذه السماك في حوزة ميرا وعلى الحائط نفسه بمقربة من ذلك تجد فرس البحر يصاد بين الأعشاب المائية، وتجد منظراً جميلاً بجوار أعشاب البردي يمثل فن الرسم في عهد قدماء المصريين حيث تجد حديقة أو حقلاً تجوزه عدة خطوط تمثل قنوات الري التي تحاكي القنى الحاضرة وكيفية وصول المياة إليها وحمله منها بالدنان والجرات وصبه حول جذور الشجار والأعشاب المزروعة، أما الغرفة الخامسة عشرة والسادسة عشرة والسابعة عشرة الواقعة على يسار المدخل فهي ملك لزوج ميرا ولم تجد بها سوى غرفة واحدة ذات أهمية، ولكنا لم نعثر بأية مقبرة أخرى على حجرات منظومة للنساء غير هذه، ولما نمر بين الغرفتين الأوليين العديمتي النور والنقوش نصل إلى الغرفة السابعة عشرة التي تجد بها محراباً بديعاً ملوناً كالذي تجده بهرم أوناس ومعبد طاحوتيب وتجد الملكة جالسة على كلا الجانبين أمام مائدة الضحايا، ولم تكن الصناعة محكمة في تلك الغرفة ولكن منظر السيدة وهي محمولة في هودجها على أعناق النساء الخادمات مما يسحر الألباب ويستهوي الأفئدة، وتجد مركبها مزيناً بصورة السد وتجد ولدها الصغير المسمى تيتاميرا الذي سبق ذكره في جهة أخرى من القبر جالساً عند قدميها، وترى ذبح الثيران وتقريب القربان مرسوماً هنا كعادته ولكن به فروقاً بسيطة وأن هذا المعبد كبير جداص حتى أنه يجدر بمن يزوره أول مرة أن يولي وجهه شطر الغرف الكبيرة وعلى الأخص المناظر التي بالغرفة الأولى والثانية

والثالثة ويجمل به أن يمر مروراً بسيطاً على سائر المعبد ليقف على مقدار حجراته وأشكاله ولربما بني هذا المعبد ليكون قصراً لصاحبه أثناء حياته وبعد وفاته إذ تجده يمثل البيت المصري القديم من عهد أربعة آلاف سنة خلت.

١٢

مقابر الأسرة السادسة

هذا عبارة عن صف من المصاطب متعامدة مع مقابر ميرا وكاجما وبها عدة أشياء هامة، إلا أنه يتعذر رؤيتها في أول زيارة لسقارة، ولذلك يجدر بنا في وصفها أن نذكر بالإجمال بعض المواضيع التي تخلف عن نظائرها في المقابر الأخرى أي نكتفي بذكر المناظر التي توجد بها وتنعدم في غيرها.

فأول ما نطرق من هذه المقابر هي مقبرة (انخميهور) الذي كان يلقب عادة باسمه الحسن الذي بيناه سابقاً وهو سيسا ولسوء الحظ نجد أن هذا القبر الجميل قد بلي معظمه إذ نجد بالحجرة الأولى منه بعض آثار باقية، أما المشهد الأدنى بهذه الغرفة وكذلك الغرفة السادسة فبهما آثار قليلة جداً إلا أنها ذات قيمة كبيرة وفائدة جليلة إذ تجد بالمدخل بين الغرفتين منظرين طبيين يمثلان الجراحة في ذلك العهد، ففي المنظر الأيمن تجد عملية الطهور، وفي المنظر الأيسر تجد عملية جراحية تعمل في قدم رجل.

وفي الغرفة السادسة بجانب الأيمن تجد صفاً من الفتيات يرقصن ويمرحن ويتداعبن، وفي الجانب الآخر من الباب تجد عدة مناظر محزنة إذ تجد النائحات اللاتي يشيعن الجنازة يولولن ويندبن وفي إحدى الديار تجد امرأة مغمى عليها من شدة الحزن والأسى، ومن لصعب الحكم عما إذا كانت هذه أم المئوى (ربة الدار) أو نائحة مأجورة وتجدها يغشى عليها مرتين أو ثلاث في طريقها إلى المقبرة من شدة الجزع فتعاونها بيدها أحدى النائحات بينما في منظر آخر تجد رجلاً يعمل ما تعمله النساء من النحيب والعويل.

وإن هذه المناظر السالفة الذكر هي أعظم المناظر التي بهذه القبور كما أن المناظر الأخرى جديرة بالرؤية أيضاً إذ تجد بها النقوش بديعة وبعض الألوان لم تزل غضة بهجة وبعض مناظر أخرى جديرة بالالتفات مثل التي بالغرفة الثانية التي بالحائط الجنوبي حيث تجد بها قنص الطيور بديعاً وتجد الصياد الذي عمله قاصر على إرشاد الناس للطيور له شملة (كوفية) يستخدمها لهذا الغرض وتجده جالساً مختبئاً خلف شجرة كي لا يذعر الطيور، وتجد هذا المنظر أيضاً في المقابر الأخرى ولكن قلما تجده جلياً كما هو بهذه المصطبة والمصاطب المجاورة لها.

أما المصطبة الثانية التي بشارع المقابر المذكور فهي مصطبة (بتاح نيفر رسم) أو مصطبة (شيشا) وأعظم منظر بها هو منظر المحراب الذي يقرب من محراب (ميرا) وأن الفرق الوحيد بينهما هو أن بمحراب ميرا تجد الملك قائماً في فجوة الباب متأهباً لتناول الغذاء والقربان ، بينما

في هذا المحراب تجده يطل من الباب ليرى ما أحضر له من الطعام وتجد شكلاً آخر له على كلا جانبي المحراب، وربما كان الشكل الأوسط يمثل صورته بالضبط، وتجد مائدة بديعة منصوبة أمام المحراب وبها الطست والإبريق المملوء بالماء المعطر وبعض الأدوات الأخرى الضرورية لطعام المآتم وتجد الرسم الذي بالحيطان غير تام ولم تجد به سوى مناظر عادية بعضها بديع ذو صور رائعة أهمها صيد الطيور وإطعامها.

قبر كاجمنا

إن مصطبة كاجمنا أكبر من لمصطبتين الأخريين، ولم يزل وجهها غير منقوب ولم نر منها إلا ركناً عند هبوطنا إلى المدخل الحالي، وإلى يساره تجد منظر الزوارق المهيأة لصيد الأسماك وإلى يمينه تجد "قنزجا" به رقص أبدع مما في قبر سيسا وبداخل الحفيرة تجد الحجرة الأولى أبدع الحجر وعلى كلا جانبيها تجد صورة كاجمنا مكبرة، ففي أحداهما تجده يتفقد أحوال الطير وفي الأخرى ينظر إلى الأسماك وتجد منظر الطيور والنباتات غاية في الإبداع، وكل هذا المنظر الذي به حبائل العصافير والطير بديع رائع، وكذلك تجد الأسماك وسلات الصيد التي بالحائط المقابل لهذا فتانة جميلة، أما المناظر التي بالحجر الأخرى، فغالباً تحتوي على طوائف من الناس تحمل الضحايا والعطايا وتجد خزائن كبيرة لأثاث المآتم تحاكي التي بحجر ميرا وبينما تجد الأفكار العامة مطابقة في كلتا المقبرتين تجد فروقاً بسيطاً بينهما فيتضح لنا من

هذه المقابر أن كل زيارة لها ترشدنا عن أشياء كانت غير مرئية من قبل وأنه كلما انجلت لنا غياهبها وأدركنا كنهها كلما تضاعف سرورنا منها.

١٣

الآثار المتأخرة

السرابيوم المؤسس حوالي ٦٦٣ ق.م

إن الآثار الباقية من سقارة تابعة لعصر متأخر جداً عن ذلك المؤرخ المسمى هيرودوت، ولكن هذا الانقلاب العظيم لم يؤثر كثيراً في المصريين الذين ظلوا عاكفين على الديانة والتمسك بمناسكهم وشعائرهم القديمة وعقائدهم التي فطروا عليها، ومع ذلك فإن هذه العقائد قد تطورت كثيراً على ممر الأيام وكر الأعوام حتى اندثرت الديانة المصرية القديمة وصارت قاصرة على الكهنة، ومع أن ديانة الطبقة الراقية من الأمة المصرية قد بلغت درجة عظيمة من التهذيب والتنقيح فأن العادات القومية القديمة والبدع الدينية لم تزل مستأصلة بين الغوغاء والهمج (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وأخيراً امتزجت تلك البدع بالأضاليل الباطلة والأباطيل الكاذبة، ومن ذلك العهد بدأت عبادة الأنعام التي كانت سائمة هملا في البراري والقلوان، وصار لها قسط عظيم لديهم يشهد بذلك المقابر التي بآثارهم وربوعهم وأنهم صاروا يعبدون العجل أبيس ويسبحونه ويمجدونه بكرة وأصيلاً لاعتقادهم بأنه الحيوان المقدس (لبتاح) حاكم منفيس وبالنظر إلى مبدأ التوفيق بين آلهة المصريين وارتباط بعضها ببعض اتحد بتاح بأوزوريس ،وصار يلقب ببتاح

سوكار أوزوريس ،وصار العجل أبيس يمثل ذلك الإله واعتقدوا بأنه كلما مات عجل انتقلت روحه إلى عجل آخر يمتاز بسمات خاصة يقفون عليها بعد البحث والتنقيب ولا مشاحة بأنهم كانوا يحتفلون بتشييع جنازة ذلك الإله وقت وفاته كما كان يعبده عامة المصريين قاطبة.

ومن عهد الأسرة الثامنة عشرة صارت هذه العجاجيل تدفن في حجر السرابيوم ولكن لم تعمل لها هذه النواويس البديعة التي من حجر الصوان والرخام الأسود إلا في عهد الأسرة السادسة والعشرين وكما يرى القارئ من الكتابة المحفورة على باب القبر أن هذا السرابيوم اكتشفه ماريت ذلك الأثري الفرنسي الشهير عام ١٨٤٨ ميلادية، وكان هذا أول أثر عثر عليه وصار استكشافه فاتحة لأعماله الهامة التي قام بها والتي كانت نتائجها العثور على معظم مصاطب سقارة والتماثيل والآثار الأخرى التي هي كالكوكب الدري لدار التحف المصرية الآن والتي ذكرها استرابون في وصف سقارة إذ قال (بأن هذه التماثيل كانت مصطفة في شارع موصل إلى السرابيوم)، فأخذ ينقب عنها في الرمال حتى اهتدى إلى مدخل ذلك القبر العجيب، وقد وصف المسيو ماريت حالته وصفاً دقيقاً حينما استحوذ عليه الذعر لأنه كان أول من ولج هذا القبر البهيم، ولما يدخل الإنسان هذا القبر ويوقد الماثلات يجد عدة فجوات غائرة في الحيطان كانت بها المحاريب (الأبواب الوهمية) وكان المحراب في ذلك العهد قد تطور كثيراً وصارت هذه الكلمة تدل على معنى غير معناها الأثري.

وقد نقل مريت هذه المحاريب إلى قصر اللوفر بباريز ولم يكن لمصر في ذاك العهد دار للتحف، ويجد الإنسان عند ولوج هذا القبر منعطفاً على يمينه ثم يسير في ممر مظلم تجد بأحد جوانبه تابوتاً كبيراً قائماً، ولا مراء بأنهم كانوا يسحبون ذلك التابوت إلى مقره المهيأ له عندما نزلت بهم نازلة أو قرعتهم قارعة شغلتهم عن نقله، ومن ذلك العهد لم تتوفر لديهم النقود الكافية وتنبعث فيهم الهمة المعهودة لإتمام عملهم، ولسنا في حاجة إلى وصف مسهب لتلك الغرف التي بالسرابيوم والفجوات التي توجد بها هذه التوابيت الشامخة، فكل ما يدهش أبصارنا ويسترعي أفئدتنا تلك الآلات العجيبة والقوة المدهشة التي استخدموها في جلب هذه الحجارة الضخمة من مقالعها وحفرها ووضعها في أماكنها كما أننا نعجب من مهارة وحذق اللصوصالذين فتحوا مغالق هذه الكنوز واستخرجوا منها حليها وجواهرها، ولم تجد رموزاً محفورة بها إلا على واحد أو اثنين منها أحدهما عليه إمضاء كامبيزيس أحد ملوك الفرس الذي غزا مصر عام ٥٢٥ ق.م وكل من يرى هذا الأثر العظيم يفتن ببداعته وروعته، ولكن قليلاً من الناس لا يلبثون بداخله طويلاً لرداءة هوائه ويسرون كثيراً عندما يغادرونه ويعودون من ظلامه الحالك وهوائه الفاسد إلى نور الشمس الساطع ونسيم الصحراء العليل.

الحفائر الفارسية المنشأة حوالي ٥٢٥ ق.م.

من بين ملوك العجم الذين حكموا مصر طائفة منهم نقف على أخبارهم من تاريخ الأمم الأخرى، وأهم ملوك هذه الطائفة دارا

واكسيركس وارتا كسيركس، ويعزى لهذه الطائفة بناء هذه الحفائر التي هي عبارة عن مقابر بمقربة من هرم أوناس، وتلك المقابر لا يشاكلها شيء من مقابر الدولة القديمة من حيث بهائها وجلالها، وأن الهبوط إليها ربما يكون داعياً إلى السآمة والملال ولذلك لا يجدر بزائري سقارة أن يهبطوا إليها أول مرة ولكنها بديعة للغاية وحقيق بكل فرد يريد الوقوف على كيفية دفن الموتى في ذاك العصر الذي يختلف كثيراً عن العصور الأخرى أن يراها فأن تنسيقها بديع للغاية إذ يتعذر على اللصوص غشيانها ولم تتناولها يد العابثين ولذلك تجدها باقية على حالها إلى عصرنا هذا، ويمكن زيارة ثلاثة منها لأنها متصلة بعضها ببعض بواسطة سرب منقوب في الصحراء تحت الأرض ولكن أشكالها كلها واحدة ولذلك يجمل بنا الآن وصفها وصفاً عاماً. أن كل مقبرة تشتمل على حفيرتين أحداهما أصغر من الأخرى ولم يكن على سطح واحدة منها معبد، ويمكن الإنسان أن يهبط إليها بواسطة درجات حلزونية أقيمت في إحدى الحفائر الصغيرة.

وبالنظر إلى أن إحداها لم تتم يسهل علينا أن ندرك الطريقة التي بنيت عليها هذه المقابر وكيفية دفن الموتى بها وهاك بيانها، بعد أن تبنى الحفيرة الكبيرة تغطى بطبقة من حجر الكلس على ارتفاع بضع أقدام من قاعها وفي تلك الطبقة تعمل عدة فجوات غائرة في الحائط بعضها كبير لدرجة أنه يسع عاملاً يقف فيه وبعضها صغير بمعنى أنه يسع أطراف غطاء التابوت البارزة، وكتنت قاعدة التابوت الضخم تدلى في هذه

الحجرة حتى تملأها جميعها ما عدا الفجوات المحفورة وبعد ذلك تعمل حفرة كبيرة وسط هذا التابوت كافية لأن تسع تابوتاً آخر من الصوان أو الرخام الأسود ثم يدلى الغطاء الضخم حتى يقترب من القاعدة ثم يبنى عليه سقف من حجر الكلس وتنقش عليه بعض النقوش ويكتب عليه باللغة الهيروغليفية، ولم تزل الألوان بهذه السقف زاهية حتى وقتنا هذا.

وعند وفاة صاحب القبر كانت توضع جثته في تابوت من خشب أو ورق سميك (مقوى) ثم يدلى من الحفيرة الصغيرة ومنها إلى السرب الصغير الموصل إلى الحفيرة الكبيرة ثم يوضع في التابوت الأوسط المصنوع من الرخام الأسود تحت الغطاء الضخم ثم تسحب بعدئذ القوائم التي تحمل الغطاء فينطبق على التابوت ثم تتمم النقوش التي بالسقف ويعمل ثقب في أحد أطرافه لغرض سنذكره بعد، وعند إتمام ذلك كله يصعد الصناع من الحفيرة الصغيرة ثم تسد الحفيرتان وبعد ذلك يهيلون الرمال على الحفيرة الكبرى فتنهال على التابوت من الثقب المحفور في السقف وبذلك يصعب على اللصوص الذين يهبطون إلى الحفيرة الصغرى الوصول إلى التابوت لكثرة انهيال الرمال التي لا يعرفون مصدرها، وقد حسبوا أن الميت يظل هادئاً مطمئناً في جدثه هذا بالنظر إلى عمقه الذي يبلغ مائه قدم ووجوده في تابوت من الرخام محاط بحيطان شامخة من حجر الكلس ومحفوظ من كل جانب بالرمال، ولقد كسر التابوت الحجري في مقبرتين من هذه المقابر ليساعد على إخراج التابوت الباطني وما به من الجثث والجواهر.

أما المقبرة الثالثة التي لم تتم، فإنها ترشدنا إلى إدراك الطرق التي اتبعت في بناء هذه المقابر وربما مات ملكها خارج البلاد ولذلك لم يدفن بها، وكانت هذه الحفيرة على وشك الاتمام، ولكن الحفر والنقش اللذين بها لم يتما، ومنها يتضح لنا أن أحد المفتشين كان يفحصها ولذلك ترك بها بعض التنقيح باللغة الديموتيقية التي هي عبارة عن اللغة المصرية العامية في ذاك العهد، أما من جهة البناء فإنه تام حيث أقيمت القبة العلوي بها والفتحة التي كانت تنهال منها الرمال لتملأ الفراغ الموجود كما تجد غطاء التابوت قائماً على ست قوائم مرتفعة ارتفاعاً قليلاً بحيث تسمح لمرور الكفن ودفنه بعد الوفاة.

١٤

دير القديس جرمياس

من ٤٨٠ إلى ١٠٠٠ بعد الميلاد

في عهد الآثار السالفة الذكر أي زمن السرابيوم وأيام الفرس كانت مصر على وشك استقلالها، إذ في ذاك العهد قوى نفوذ الأهالي حتى أمكنهم أن يلقوا عن عاتقهم نير الفرس وفي عهد الأسرة الثلاثين نشأت طائفة جديدة من الملوك الأشداء الذين حافظوا على استقلالهم فترة من الزمن ولكن سرعان ما ضعفت شوكتهم وثل عرشهم وصارت مصر مع بقية الدولة الفارسية جزءاً من دولة الاسكندر الأكبر حوالي ٣٣٢ ق.م.، ومن ذاك التاريخ أخذ يحكمها البطالسة نحواً من ثلاثة قرون.

ومع أن هؤلاء الملوك كانوا يونانيين ولم يكن في عروقهم قطرة من دم المصريين، فإنهم تخلقوا بخلق المصريين وألفوا عاداتهم ومجدوا معبوداتهم، وفي عام ٣٠ ق.م سقطت كليوباترا وبدأت فتوحات الرومان الذين اعتبروا مصر ولاية رومانية فذهب نفوذ المملكة السياسي ولكن قياصرة الرومان لم يمسسوا الديانة المصرية القديمة بسوء، بل أنهم انفقوا أموالاً طائلة على حفظ المعابد، ولم يمض زمن طويل على الديانة المسيحية حتى انتشرت في عرض البلاد وطولها وبعد قليل من الزمن صارت الأمة قاطبة مسيحية.

ويجدر بنا أن لا ننسى أن الفترة التي بين الديانة المصرية القديمة والديانة الإسلامية الغراء كانت فيها مصر أمة مسيحية وكان لهذه الديانة المسيحية المصرية تثير كبير في الحياة الدينية بأوروبا، فلا نتناسى بأن المعابد لصخرية التي بطيبة كانت دائماً ملجأ يعتصم به الكهنة ويحتجبون فيه عن الخلق كما كانت مصر كعبة يجتمع فيها النساك من سائر أنحاء العالم ويشرعون فيها الشرائع ويذهبون فيها المذاهب، ومن بين الأديرة المصرية القديمة التي أنشئت في ذاك العهد دير في سقارة بمقربة من حاضرة البلاد القديمة (منفيس) التي اندثرت الآن وصارت أثراً بعد عين.

وقد عاش في هذا الدير كثير من الرهبان وأقاموا لهم كنيسة بديعة، وظل هذا المكان عامراً بالمكان زمناً طويلاص إلى أن قضى عليه القضاء المبرم لما غزا العرب البلاد فذهبت معالمه وعفت آثاره وغمرته الرمال وحجبته عن العين كما غمرت كثيراً من المقابر العتيقة.

وآثار العصر المسيحي هذه قد استرعت أبصارنا وأدهشت أفئدتنا بعد تلك الآثار العتيقة والصناعة المصرية القديمة، لأنه بانتشار المسيحية في البلاد اقتربت مصر من لم شعثها وتوحيد جامعتها إذ رغب المسيحيون في جعل كنائسهم واحدة في سائر أنحاء العالم ،وعند ذلك أقلع المصريون عن معتقداتهم السالفة ومزاعمهم الباطلة وكفوا عن عبادة أوثانهم ونبذوا لغتهم وهجروا صناعتهم التي اتخذوها لتعظيم معبوداتهم وانشئوا يدونون كتبهم باللغة القبطية التي هي خليط من اللغة المصرية واللغة اليونانية.

واعتبرت الديانة المسيحية فن الرسم والنقش عبادة وثنية ولذلك طرح المسيحيون سنة أسلافهم التي جروا عليها في رسم الجسم الإنساني على شكله الأصلي، وكانت الصناعة في عهد المسيحيين مخالفة كل المخالفة لصناعة أحدادهم، وتجد آلات الحجارة البديعة التي كانت في الدير المسيحي محفوظة في الغرف القبطية التي بدار الآثار المصرية، وإذا وقفنا حولها شعرنا بأننا انتقلنا إلى عالم آخر في (بيرانتيم) لأننا نرى حوالينا عمداًوأفاريز كإنما هي مجلوبة من (أيا صوفيا) الذي بالقسطنطينية أو من (سنت فيتال) في (رافينا) ذلك لأن تاريخ تلك المخلفات ينطبق بالضبط على تاريخ الكنائس (البيزنطية) كما أن القديس جرمياس مؤسس الدير المذكور عاش بالتقريب من سنة ٤٦٠ إلى سنة ٥١٠ ميلادية في عصر الإمبراطور أناستسياس الذي كان حاكماً قبل تولي الإمبراطور جستنيان ببضع سنين، وإن أبدع تلك المخلفات ما كان

أقدمها ذلك لأنه تعاقبت عليها تغيرات وإصلاحات غيرت من معالمها على ممر الأيام واعتورها الفساد من جراء الفقر الذي لحق البلاد والأخطار التي حاقت بها من كل جانب، وأن فتح العرب لمصر في عهد أمير المؤمنين سيدنا عمر رضي الله عنه على يد سيدنا عمرو بن العاص سنة ٦٤٠ ميلادية قضى على أبهة تلك الآثار، ولكن معالمها ظلت ظاهرة عدة قرون وأخيراً رممت الكنيسة الكبيرة وبعض الآثار الأخرى حوالي القرن التاسع ولكن لم ينفق عليها كثير من المال بالنظر إلى فقر البلاد وشقائها كما ذكرنا، وبعد مضي زمن عفت آثارها وطمست معالمها حوالي سنة ١٠٠٠ بعد الميلاد كما يشهد بذلك الكتابة العربية المحفورة على حيطانها.

وإن طريقة بنيان هذه الكنائس غريبة إذ نجد صفوفاً من الحجر بعضها فوق بعض مرممة ومقامة حول الحيطان لحفظها، ويظهر أن الكنيسة الكبيرة كان لها فناء كبير قبالة الباب الغربي كما كان لها ممر حلزوني ضيق بني في الأزمنة المتأخرة ،ولا مراء بأنها نقبت وسلبت بعد فتح العرب لمصر، ويمكن الإنسان أن ينظر إليها نظرة عامة من قمة عالية على اليسار من هرم أوناس في نهاية الكثبان ولكن الذين لهم شغف بالآثار المسيحية يجدون لذة في التطواف حول ذلك الدير. ومخلفات الكنيسة الكبيرة قليلة لأن معظم الأحجار الجميلة نقلت من أماكنها واستخدمت في أبنية أخرى لما دمر ذلك الدير أما الأعمدة البديعة التي لحسن الحظ قد بقيت فقد نقلت إلى دار العاديات بمصر، ولم تزل

قواعد كثير من الأعمدة قائمة في البهو الذي بالناحية الجنوبية ويظهر لنا أن الأرض كانت مرصوفة بأحجار بديعة ولكن صار ترميمها في كثير من الجهات ببعض أحجار الأجداث المأخوذة من المقابر وتلك الكتابة المنقوشة على هذه الأحجار قد ساعدت كثيراً على ذكر تاريخ الإصلاحات والترميمات التي عملت.

وفي شمال الكنيسة تجد عدة حجر صغيرة ذات دهليز أو اثنين يتصلان بها ويوصلان إلى فناء كبير به أربعة أعمدة ضخمة من الصوان وكانت تلك الأعمدة في الأزمان السالفة تحمل سقفاً يُظل حوضاً كبيراً لم تزل قاعدته التي من الحجر الصواني المصري باقية في مكانها، وفي الناحية الشمالية المذكورة تجد آثار منبر قد نقل الآن إلى دار الآثار المصرية.

وتجد أيضاً صومعة صغيرة بجواره من الناحية الشرقية، وفي الأرض المرتفعة التي بالجهة الغربية تجد بعض غرف الرهبان كانوا يقيمون في غرفتين أو ثلاث إحداها كانت تستعمل للخطابة وفي الجهة الشرقية منها تجد قبلة المذبح وكثيراً ما كانت تطلى تلك الغرفة وتزين أحياناً برسم عليها شكل المسيح عليه السلام، كما كان يرسم معه غالباً نفر من الملائكة الكبار مثل سيدنا ميكائيل وجبرائيل والقديس جرمياس مؤسس المعبد ووسط ذلك تجد رسم العذراء وولدها المقدس، وما عدا تلك لقبلة تجد بالحجر الأخرى عدة خزائن غائرة في الحائط وتجد فتحات لتجديد الهواء بالناحية الشمالية، وتجد عدداً كبيراً من تلك الغرف، كما تجد عدة مخازن ومطابخ ودهاليز ومدارج تشغل مساحة كبيرة من

الأرض، وهنالك أدلة كافية تدل على بساطة بنيان وترميم ذلك الدير في كل ناحية منه إذ تجد الحيطان الطينية مستندة على قوائم وتجد بعض الأبواب مسدود في جهة وحيطان أخرى مستجدة في جهة أخرى وكل ذلك الترميم والإصلاح الأخير بني من أية مادة أمكنهم الحصول عليها مثل الآجر واللبن والأحجار الكلسية التي أتوا بها من المقابر المصرية القديمة وبعض النقوش القبطية البديعة التي عثروا عليها في الكنيسة الأولى، وترى الحيطان التي أقيمت في لعصور الأخيرة مبنية بالآجر.

أما الأحجار البديعة النقش فقد نقلت إلى دار الآثار، ويمكن الإنسان درس أشياء كثيرة من الصناعة القبطية التي صارت أساساً للصناعة العربية الحديثة فمثلاً تجد المنبر المأخوذ من هذا الدير الذي هو الآن بدار الآثار مثالاً للمنبر العربي. وتجد أيضاً النوافذ المصنوعة من الحجر والملاط التي وجدت بالجوامع العتيقة والنماذج البديعة من الأخشاب والأحجار التي أخذت من النماذج القبطية هي أساس النماذج التي تراها الآن بدار الآثار العربية، وهذا مما يثبت لنا أن الغزاة من العرب قد هدموا معظم الآثار المصرية القديمة مدفوعين في ذلك بطمعهم في الفتوح وشدة بأسهم وغيرتهم على نشر الدين الإسلامي الحنيف وإقامة دعائمه وبسط سيادته.

الفهرس

مقدمة الناشر ٥

تمهيد ١٢

القطر المصري في القديم ١٩

منف أو منفيس ٢٤

معبد بتاح ٢٩

سقارة مقر البقيع ٣٠

تمثالا رمسيس الثاني ٤٦

الهرم المدرج المؤسس حوالي سنة ٣٠٠٠ ق.م ٤٩

مقابر الأسرة الخامسة ٥٢

هرم أوناس ٦٤

أهرام أبي صير ٦٦

معبد الشمس بأبي غراب ٦٩

مقابر الأسرة السادسة ٧١

مقابر الأسرة السادسة ٧٨

الآثار المتأخرة ٨١

دير القديس جرمياس ٨٦